

الأعمال الدينية



الهيئة
المصرية
العامة
للكتاب

خالد محمد خالد

بين يدي عمر

<http://www.makbttna2211.com>

مهرجان القاهرة للجميع



■ خالد محمد خالد

- كاتب ومفكر إسلامي، حصل على الشهادة العالمية من الأزهر الشريف.

- ولد باحدى قرى محافظة الشرقية عام ١٩٢٠ وتوفى عام ١٩٩٦.

- من أكثر الكتاب الذين أثروا الحياة الفكرية والإسلامية بمؤلفاتهم التي قاربت خمسين كتاباً منها: من هنا نبدأ، عام ١٩٥٠، مواطنون.. لا رعايا، رجال حول الرسول، الدين للشعب، لله والحرية ١٤ جزءاً، معا على الطريق، خلفاء الرسول، أزمة الحرية في عالمنا وغيرها فضلاً عن كتاباته في الصحف و المجلات.

- نوقشت حول أعماله عديد من الرسائل الجامعية.

مكتبة الأسرة



بمناسبة

مهرجان القراءة للجميع ١٩٩٧

الهيئة المصرية العامة للكتاب
بالتعاون مع مطابع دار المعارف



WWW.MAETBHARIS.COM

بین یدی عمر

خالد محمد خالد



مهرجان القراءة للجميع ٩٧
مكتبة الأسرة
برعاية السيدة سوزان مبارك
(الأعمال الخاصة)

قال الراوى

تأملات فى فن الرواية

احمد عبدالمعطى حجارى

الجهات المشتركة:

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية

وزارة الثقافة

وزارة الإعلام

وزارة التعليم

وزارة الإدارة المحلية

المجلس الأعلى للشباب والرياضة

التنفيذ: الهيئة المصرية العامة للكتاب

الغلاف:

الإشراف الفنى:

للفنان محمود الهندى

المشرف العام

د. سمير سرحان



مقدمة

وهكذا تمضى مسيرة مكتبة الأسرة لتقدم فى عامها الرابع تسع سلاسل جديدة تضم روائع الفكر والإبداع من عيون كتب الآداب والفنون والفكر فى مختلف فروع المعرفة الإنسانية، تروى تعطش الجماهير للثقافة الجادة والرفيعة، وتنضم إلى مجموعة العناوين التى صدرت خلال الأعوام الثلاثة الماضية لتغطى مساحة عريضة من بحور المعرفة الإنسانية، ولتقطع بأن مصر غنية بتراثها الأدبى والفكرى والإبداعى والعلمى، وإن مصر على مر التاريخ هى بلاد الحكمة والمعرفة والفن والحضارة .. عبقرية فى المكان وعبقرية الإبداع فى كل زمان.

سوزان مبارك

على سبيل التقديم . . .

مكتبة الأسرة ٩٧ رسالة إلى شباب مصر
الواعد تقدم صفحات متألقة من متعة الإبداع
ونور المعرفة مصدر القوة في عالم اليوم..
صفحات تكشف عن ماضينا العريق وحاضرنا
الواعد وتستشرف مستقبلنا المشرق.

د. سمير سرحان



مراجع تاريخية



الكامل : للعلامة ابن الأثير

الطبقات الكبرى : « ابن سعد

أخبار عمر : للأستاذين }
على الطنطاوى }
ناجى الطنطاوى }



أَيُّذُنُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ..؟

الفصل الثاني :

ما تقولُ لربك غداً ؟ ٤١

الفصل الثالث :

ألائك ابن أمير المؤمنين ؟ ٦١

الفصل الرابع :

ولا خير فينا ، إذا لم نسمعها ١٠٧

الفصل الخامس

لستُ بالخَبِّ ، ولا الخَبُّ يخدعني ١٢٩

الفصل السادس :

بَشِّرْ صاحبك بغلام ١٤٩

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

لست أكتب تاريخاً لعمر
ولا أزيد الناس معرفة بعظمته وشأوه . .
ولا أذكى على الله نفسى بالكتابة عن رجل أحبه الله واصطفاه . .
إن المحاولة التى أنا بصددتها ، أكثر تواضعاً من هذا كله . .
إنى أصغى إلى أمير المؤمنين ، لا أكثر . . وأتطلع إليه ، لا أقل . .
وفى دروب التاريخ سنحاول - القراء وأنا - أن نلتقى بالرجل الذى
لم تُسعدنا المقادير باللقاء معه فى دروب المدينة . حيث كانت سجاياه
وعظمته تملأ الزمان والمكان بما لأعينُ رأت ولا أذن سمعت من عدالة
الحاكمين ، وزهد القادرين ، وإخبات الناسكين ، وقوة الودعاء الراحمين ،
ووداعة الأقوياء المتقين . ! !
أجل ؛ هذا ما نحاول فى هذه الصفحات بلوغه . . أن نعيش لحظات
فى رحاب عمر ، ونأخذ من المشهد المكتوب عِوَضَ ما فاتنا من المشهد الحى .
ونلقى السمع والبصر والفؤاد بين يدي هذا القوى الأمين . والمعلم الذى ليس له



بين المعلمين نظير ، ونقضى في مَعِيَّتِهِ لحظات ترفع من قدر حياتنا .

• • •

و « مَعِيَّةُ » أمير المؤمنين ، ليست مثل « مَعِيَّات » غيره من الأمراء ،
والحاكمين .

إنها شيء مختلف جداً . . . فلا مكان فيها لأطياب الطعام ، ومناعم
الشراب ، ومباهج الحياة . . . لا مكان للفرش المرفوعة ، ولا للأكواب
الموضوعة ، ولا للتمارق المصفوفة ، ولا للزرايى المبثوثة .
لا مكان للراحة . . . لا مكان للزهو . . . لا مكان للزلف . . .

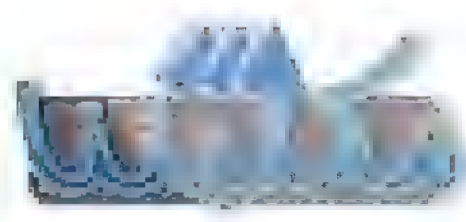
من أجل هذا ، كان الاقتراب من هذه « المَعِيَّة » رهيباً ، بقدر ما هو
حبيب إلى النفس ، وبقدر ما يُفضى إليه من شرف عظيم .
و « عمر » من الطراز الذى تغمرك وأنت تقرأ تاريخه المكتوب كل
الهيئة التى تغمرك وأنت تجالس ذاته وشخصه .

والمشهد المسطور من تاريخه ، لا يكاد يختلف عن المشهد الحى إلا فى
غياب البطل عن حاسة البصر . . .

أجل . . . عن حاسة البصر وحدها . . . أما الأفئدة . . . أما البصيرة ،
فتحسن وهى تطالع سيرة عمر أنها تُعائشه ، وتجالسه ، وترى رأى العين
جلال الأعمال ، ومناسيك البطولات التى يتناولها بيد أستاذ عظيم ، جد
عظيم . . .

• • •

ولكن على الرغم مما تفرضه صحبة « عمر » من حرمان وشطَف . . .
فليس على ظهر الأرض بهجة ، ولا متعة ، ولا نعمة تفوق مباهج ومناعم
هذه الصحبة بحال . . . !



فالرجل الكبير في بساطة ، البسيط في قوة ، القوى في عدل ورحمة
لا يستريح ولا يترك الذين معه يستريحون ، ولكنه يمنحهم بدلا من الراحة
المفقودة ، أعظم ما في الحياة من سوّد ، وغبطة ، وتفوّق
هذا هو أمير المؤمنين ، الرجل الذي أنجبه البشرية ورباه الاسلام .
هذا هو الحاكم المؤمن الذي إذا ذكر رؤساء الدول والحكومات منذ
فجر التاريخ الإنساني إلى يوم الناس هذا ، كان أعظمهم ، وأبرهم ،
وأزكاهم - من غير مبالغة - أية مبالغة . . !
هذا هو الناسك الذي تفجّر نسكه حركة ، وذكاء . . . وعملا . .
وبناء . .

هذا هو المعلم الذي صحح مفاهيم الحياة ، وأفرغ عليها نوراً من
روحه ، وكساها عظمة من سلوكه ، وكان للمتقين إماماً . . !

* * *

تُرى ماذا يذكر التاريخ اليوم من نبته العظيم ، وبم يلهج الناس من
سيرته الفاضلة ؟ ؟

هل يذكرون فتوحاته على كثرتها . . . ؟ ؟ هل يذكرون انتصاراته
على روعتها . . ؟

إن سلوك أمير المؤمنين ، يشغل التاريخ ويشغل الناس عن كل
شيء سواه .

• ودائماً ، وأبداً ، تُطلّ على الحياة صورة ذلك الإنسان الإلهي
الذي يجرى في وقت الحر القاتل وراء بعير من أموال الأمة مخافة أن يند
ويضيع ، فيحاسبه الله حساباً عسيراً . . ! !

• أو الذي يصطحب زوجته في الهزيع الأخير من الليل حاملاً على



كتفيه وفي يديه جراب دقيق ، وقربة الماء ، ووعاء السمن ، حيث تتولى زوجته أمر سيدة غريبة أدركها المخاض وحيث يجلس هو خارج الكوخ يُنضج لها طعام الوالدات . . !

• أو الذي يتأخر عن خطبة الجمعة ، ثم يحىء مهرولا في بُردة بها إحدى وعشرون رقعة ، تحتها قميص لم يجف بعد من الليل ، ثم لا يكاد يصعد المنبر حتى يعتذر للناس عن تأخره فيقول : « حبسنى عنكم قميصي هذا . . كنت أنتظره حتى يجف ، إنه ليس لي قميص غيره . . ! ! »

• أو الذي يستقبل هدية من الحلوى أرسلها إليه عامله على أذربيجان فيسأل الرسول الذي جاء بها : أو كُلُّ الناس هناك يأكلون هذا . . فيجيبه الرجل قائلا : كلا يا أمير المؤمنين ، إنها طعام الصَّوَّة . . ! ! فيختلج عمر ويقول للرجل : « أين بعيرك . . احمل هديتك وارجع بها إلى صاحبها وقل له : عمر يأمرك ألا تشبع من طعام حتى يشبع منه قبلك جميع المسلمين . . ! ! »

• • •

هذا هو عمر في ذاكرة التاريخ ، وفي ضمير البشرية .

هذا هو منارة الله في الدنيا ، وهديته إلى الحياة .

وعلى مائدته الخالية من أطايب الطعام ، الحافلة بأطايب العظمة ،

سنقضي أسعد وأرغد لحظات حياتنا . . ! ! !

خالد محمد خالد



الفصل الأول

ليوسف عنهم خيرًا





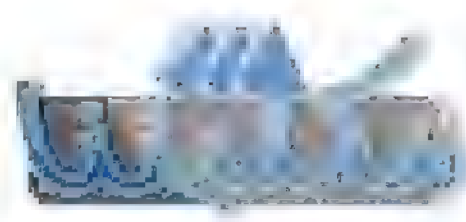
كانت مكة تُودع ضيوفها الذين وفدوا عليها من شتى بقاع الجزيرة
ليشهدوا مهرجان « عكاظ » حيث تزهر القبائل بشعرائها المتفوقين ،
وحيث تزدان حلبة المصارعة بفتيان قريش الأشداء يعرضون ألعابهم في
فن عظيم .

كانت مكة تودع أولئك الأضياف الذين شدوا الرحال راجعين إلى
بلادهم ، وتُجموعهم - عدا نفر قليل منهم استهواهم البلد الحرام ، قهيبوا
الظعن ، وآثروا المكث .

من هؤلاء النفر ، ذلك الشيخ الذي يقطع الطريق وهناً ، مُيمماً
وجهه شطر دار الندوة ليقضى بها ساعة الأصيل مع رفاقه في الشيخوخة
والذكريات . . . !

وإنه لماضي في سبيله ، إذ لقيه في الطريق أعرابي قريب العهد بمكة
يعمل راعياً لدى واحد من سادات قريش . .

ولا يكاد الفتى يصير الشيخ أمانه حتى تتحدر الكلمات من بين



شفتيه في حَمِيَّةٍ وعَجَلَةٍ .

- هل علمت النبأ العظيم يا أخا العرب .

- أي نبأ يا بني ... ؟

- ذلك الرجل الأعسر اليَسْر ...

ويتساءل الشيخ قائلاً :

- الذي كان يصارع في سوق عكاظ ... ؟

- أجل ... هو ...

- ما باله يا فتى ... ؟

- لقد أسلم ، واتبع محمداً ..

ويُفِيق الشيخ من الدهشة ، ويقول وقد كست وجهه حكمةُ

السنين :

- « أما والحق ، لَيُوسِعُهُمْ خيراً .. أو لَيُوسِعَهُمْ شراً .. ! ! »

• • •

أما الأعسر اليَسْر الذي كان يُصارع في سوق عكاظ ، فهو عمر ..

وأما نبوءة العربي ، فقد جاءت كفلَقَ الصبح ، وضوء النهار .

ومن ذلك اليوم ، لم يعد الأعسر اليَسْر .. « عمر بن الخطاب بن

نقيل بن عبد العزى » ، من بني عَدِيٍّ .. لم يعد ذلك الذي يُصارع

الأشداء في سوق عكاظ ، بل صار « الفاروق عمر » ، الذي سيصارع

الباطل في جزيرة العرب ، « أولَ النهار .. وفي كل الدنيا ، آخرَه ..

سيكون الرجل الذي يملأ أرض الناس عدلاً ، وأمناً ، ورحمة ،

وهُدًى ..

سيكون « المعلم » الذي يُلْغِ الرشد الإنساني على يديه رُشدَه ..



و «الأستاذ» الذي تجلس الدنيا عند قدميه . . !
 أجل . . سيكون الإنسان الذي يرفع الله به من قَلْبَرِ البشر ، وقَدَرِ
 الحياة .

• • •

«ليوسعهم خيراً ، أو ليوسعهم شراً» . . ! !
 كيف أدرك الشيخ العربي ، مصائر الأمور على هذا النحو السريع
 الفَظِن . . ؟

الحق أن الذي قُدِرَ له أن يرى «عمر» في شبابه ولو رؤية عابرة ،
 قادر على أن يردد نفس النبوءة ، ويستشرف الغد الذي استشرفه الشيخ
 في غير عَنَاء .

«فعمر» ، ذلك الرجل القوي ، المجدول اللحم ، المشرب بالحمرة ،
 الغليظ القدمين والكفَّين ، العريض المنكبين ، الفارهُ الشامخ العملاق ،
 الذي لم يَسِر قط مع قوم إلا كان أعلاهم رأساً من قَرَط طوله .
 الرجل الذي كان كما نَعْتُوهُ : «إذا تكلم أسمع وإذا مشى أسرع ،
 وإذا ضرب أوجع» .

«عمر» الذي لم يَخَف قط في حياته أحداً ، ولم يَخْلُج جناحه الصامد
 أمام رهبة أو فزع .

«عمر» الذي ورث من طباع أبيه ، صرامة لا تعرف الوهن ، وحسماً
 لا يُورِجحه التردد ، وتَصميماً لا يقبل أنصاف الحلول .

«عمر» هذا . . من اليسير جداً استكشاف حقيقته ، وقراءة دخیلته
 والتنبؤ بمصائر الأمور بين يديه ، فإما أقصى اليمين ، وإما أقصى اليسار .
 إنه أبعد الناس عن ازدواج الشخصية ، وتعددتها . .



ومركز الثقل فيه ، لا تتناوبه أشتاتُ نفسٍ مُوزَّعة ، ولا تميل به أهواء متنافرة ، إنما تحتشد به شخصية متسقة حافلة .

فحيث يوجد « عمر » توجد كل شخصيته ، وكل إرادته ، وكل منهجه .

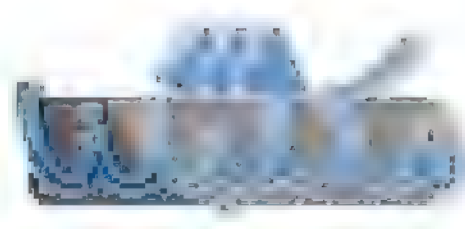
لا ينقسم على ذاته أبداً . . . ولا يضع إحدى قدميه هنا - وثانية القدمين هناك . . .

إنه رجلٌ « جَمِيعٌ » تتحرك كل قُدراته في دقة واتساق . . . يفوقان دقة الجيش المدرب واتساقه . وليس لذرة واحدة في كيانه فرصة للتخلف . . . أو للتلكؤ ، أو للنشاز . . . !

إنها طبيعة فذة قلما تتكرر ، وقلما يكون لها في الأعداد الهائلة من البشر نظير .

ولقد كان الرسول عليه الصلاة والسلام يدرك عظمة الطبيعة البشرية التي رَزَقَهَا « عمر » . . . وكان يعرف ما تنطوي عليه من أصالة واقتدار . . . كما كان يعرف ما يتمتع به « عمرو بن هشام » من جاه ونفوذ .
من أجل هذا دعا ربه الكبير أن ينصر الإسلام بأحب الرجلين إليه - « عمر بن الخطاب » ، أو « عمرو بن هشام » . . .

ولقد ربح الإسلام أحبَّ الرجلين إلى الله ، وكان « عمر بن الخطاب » صاحب الفطرة القوية السوية الجياشة . . . ألقي ثقله كله في كِفَّة التوحيد ، على حين ألقي الآخر ثقله في كِفَّة الشرك . ولكن مصير الميزان تقرر في نفس اللحظة التي أصبح فيها « عمر » قوة في إحدى كفتيه ، واستبانَ غَدُ الإسلام كضوء الفجر منذ قال « ابن الخطاب » : « لا إله إلا الله ، محمد رسول الله » . . . !



يقول عبد الله بن مسعود : « ما زلنا أعزة منذ أسلم عمر ، كان إسلامه فتحاً ، وكانت هجرته نصراً ، وكانت إمارته رحمة ، ولقد رأيتنا وما نستطيع أن نصلي بالبيت حتى أسلم عمر » . . . ! !

• •

هذا العنقوان الوثيق في شخصية « عمر » . كان يبدو كما لو كان تطرفاً ، وتزمتاً، وغِلظة . .

في الجاهلية ، كانت مُحَادَّته للإسلام ، تكاد وحدها تعدل أذى قريش . . وكان تشبهه بموقفه يَدْحَضُ أى أمل في عُدوله عنه ، حتى لقد صَوَّرَ أحد المسلمين يومئذ يأسه من إسلام « عمر » بقوله : « إنه لن يسلم حتى يُسلم حِمار الخطاب » . . . ! !

وفي الإسلام ، صارت مُحَادَّته للوثنية تكاد تعدل وحدها مقاومة الإسلام بأسره ، وصارت صرامته العادلة العاقلة مضرب الأمثال ، حتى لقد كان الوحيد بين الصحابة الذى يُكثِرُ من مناقشة رسول الله ، والذى يقترح أحياناً على الرسول ، فيُضِى رسول الله ما اقترح ، ويسن ما ارتأى . وكان شديد الوطأة على خصوم الإسلام بصورة تفرد بها عن سواه .

يَبْدُ أن ذلك لم يكن من « عمر » تطرفاً ، ولا تزمتاً ، ولا قسوة . إنما كان تفوقاً . .

ذلك أن الطبيعة التى كانت تحتشد مواهبها وقدراتها على هذا النسق الفذ الذى توفّر « لعمر » ، لا يكون لصاحبها الخيار إلا فى مستوى هذا التفوق المهيمن العميم .

وهكذا كان « عمر » . .

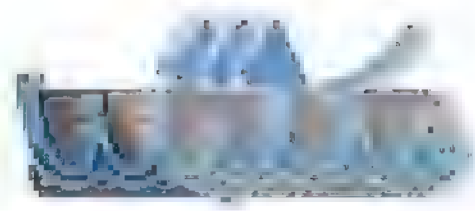
رجل مُزَوَّد بطبيعة مشحونة قوية ممتلئة . . طبيعة مستقيمة القصد ،

وقرع الباب قرعاً رهيباً . .

وقيل : من ؟ . قال : عمر . .

أما خباب ، فسارع إلى مخبأ قَصِيٍّ فى الدار ، سائلاً الله حفظه

وغوثه . . ! !



شديدة الأثر ، سواء في صلاحها وهداها . .
وهي إذا اتخذت موقفاً ، تبلغ فيه المدى . لا استجابة لتزعة الغلو ، بل
تحقيقاً لإمكاناتها الحافظة ، وتعبيراً تلقائياً عن تفوقها وامتلائها . .
إن ثمةً فارقاً كبيراً بين التفوق والتطرف . .
الأول ، يشبه النمو الطبيعي .
والثاني . يشبه مرض نمو العظام .
الأول ثمره خلايا حية عاملة ، وطبيعة سوية نامية ، والثاني عرض من
أعراض العلة والسقم . .
والتفوق ، قوة عادلة تتضمن الحكمة ، ولا تستعلي على الخير ،
أو تتواري من الحق . .
وهكذا كان الذي مع « عمر » التفوق ، لا التطرف . . والقوة ،
لا القسوة . .
وإن الظروف التي أزعجت إسلامه وأحاطت به لتكشف جوهر طبيعته ،
وتوضح هذا أوضح بيان . .

• • •

ذات يوم لأهيب ، خرج من داره حاملاً إصراره الحرور ، وسيفه
الجبسور ، موكباً وجهه شطر « دار الأرقم » حيث كان الرسول ونفر من
أصحابه المؤمنين يذكرون الله هناك ، ويعبدونه .
وفي الطريق يلقاه « نعيم بن عبد الله » فيرى ملامحه تنفجر بأساً ونقمة ،
فيقترب منه في وجل ويسأله :
- إلى أين يا « عمر » . . ؟



فيجيبه : « إلى هذا الصائى الذى فرّق أمر قريش وسفّه أحلامها ،
وعاب دينها ، وسب آلهتها فأقتله » . .

ويذهل « نعيم » عن إحساسه بالموقف ، وبالخطر الذى ينجم عن
معارضته لعمر ، فيقول له :

- « لبئس السعى سعيك ، وبئس الممشى ممشاك » . . !

ويخشى « عمر » أن يكون « نعيم » قد أسلم ، فيقول له :

- « لعلك صبأت . . . إن تكن فعلت فواللآت والعزى لأبدأن بك » .

و « نعيم » يعرف تماماً أن « ابن الخطاب » يعنى ما يقول ، فيُنهى
الجوّار بعبارة تلوى زمام « عمر » ، إذ لا يكاد يحتمل وقّعها الشديد :

- « ألا فاعلم يا عمر أن أختك وزوجها - سعيد بن زيد - قد
أسلما ، وتركنا دينك الذى أنت عليه » . .

- أخته . . . ؟؟ فاطمة بنت الخطاب . . ؟؟

مأله ولدار الأرقم إذن ، وقد اقتحم الخطر داره هو وعَربنه . ؟

وهكذا ، أغدّ السير إلى دار ختّنه « سعيد » . .

في جوف الدار كان « سعيد بن زيد » ، وزوجته « فاطمة بنت
الخطاب » و « خباب بن الأرت » ، وملء أيديهم صحيفة فيها من وحى الله
آيات يتلونّها ويتدارسونها .

وقرّع الباب قرعاً رهيباً . .

وقيل : مَنْ ؟ قال : عمر . .

أمّا خباب ، فسارع إلى مخبأ قصيٍّ في الدار ، سائلاً الله حفظه
وغوثه . . ! !



وأما أخت « عمر » وزوجها ، فقد استقبلاه لدى الباب يغشاهما
ذهول المفاجأة ، ولم تنس بنت الخطاب في هذه الغمرة الداهية ، الصحيفة
الكريمة التي بها آى الله فخبأتها تحت ثيابها .

قال « عمر » والهول ينقذف من عينيه : ما هذه الهيمنة التي سمعتُ
عندكم . . ؟

أجابا : لا شيء ، إنها نجوى وأحاديث . .

قال لهما : سمعت أنكما صبيأتما . . .

قال سعيد : « رأيت يا عمر إن كان الحق في غير دينك » . . ؟

ولم يمهله « عمر » حتى يتم حديثه ، فوثب عليه في عنفوان لَجِب ،
وأخذ برأسه يجره ويلويه ، ثم ألقاه أرضاً ، وجلس فوق صدره . . وحين
تقدمت أخته لتدافع عن بعلها أصابتها منه لكمة أذمت وجهها فصاحت به
وكانها بوق سماوى يدوى ويصلصل :

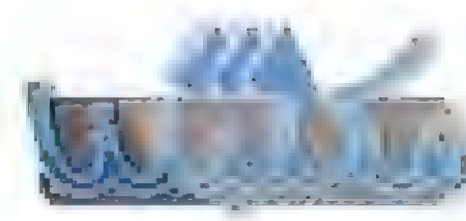
- : « يا عدو الله ، أتضربنى على إيمانى بالله الأحد ؟ ألا ما كنت فاعلاً

فافعل ، فإنى أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله » . . !

والآن ، انتبهوا جيداً ، فإن اللحظة الحاسمة تدق ، مؤذنة بالتحول
وكاشفة عن الجوهر النقى القوى الذى صُنعت منه فطرة هذا الرجل الكبير .
فبينما هو فى بأسه الشديد ذاك ، يجابهه الحق على الصيحة ، فيلن له
« عمر » ويتخشع . .

ذلك أن الكلمات المندلعة من إصرار أخته كانت تحمل كل رنين
الصدق .

هذا الرنين الذى يعرفه ويميزه من له فطرة كفطرة « عمر » ، تماماً
مثلما يدرك الفارس الأصيل المجرب ، أصالة الخيل من صهيلها . . ! !



ولو كانت قوة « عمر » قوة عناد وقساوة ، لتأدت في ضراوتها وبلغت من الموقف ما تريد .

أما وهي قوة تفوق وبطولة ، فقد استجابت من فورها لهذا الجلال المتبدى أمامها ، لهذا الرأس العزيز المرتفع ، رأس « فاطمة بنت الخطاب » المؤمنة بالله وبرسوله . . وهذه الكلمات المتوهجة بنور الحق الصادحة برنين الصدق . وفجأة ينهض من فوق صدر « سعيد » . ويبسط يده المضارعة إلى أخته ، سائلا إياها أن تعطيه الصحيفة التي رآها تبرز من تحت ثيابها :
- هات هذه الصحيفة ، لأنظر ما فيها .

وتجيبه أخته : « كلا ، إنه لا يمسه إلا المطهرون ، اذهب فاغتسل وتطهر »

ويعضى « عمر » كالأنفاس الوديعه الهادئة ، هذا الذي كان من لحظات إعصاراً يدمدم . . ويعود ولحيته تقطر ماء ، وتعطيه أخته الصحيفة ، ويقرأ :

« بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
« طه . مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ، إِلَّا تَذَكُّرٌ لِّمَن يَخْشَى . تَزِيلًا
مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى . الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى . لَهُ مَا فِي
السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ، وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى . وَإِنْ يُجْهَرُ بِالْقَوْلِ
فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى . اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى . »

ثم يتابع التلاوة في خشوع وتبذل :
« إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ، إِنَّ السَّاعَةَ
آتِيَةٌ أَكَادُ أَخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى ، فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَن
لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى . . »



٣٠

ويعانق عمر الصحيفة ثم يقبلها . وينهض واقفاً ويقول :
« لا ينبغي لمن هذه آياته ، أن يكون له شريك يُعبد معه ، دُلُونِي عَلَى
محمد ! »

وهنا يبرز « خبّاب بن الأرت » من مخبئه ، ويهرول صوب عمر
صائحاً : « أبشر يا عمر ، فوالله لقد استجيب دعاء الرسول لك » .
ويتخذ عمر سبيله إلى الصفا حيث دار الأرقم ، وهناك بين يدي
رسول الله عليه الصلاة والسلام يدخل في الدين الحق ، ويكبر المسلمون
تكبيرة تهتز لها مكة جميعاً . . . !

• • •

في مثل منح البصر ، تمّ هذا التحول المائل العظيم ، وانتقل إلى أقصى
رحاب الهدى : رجل كان يقف في أقصى مجاهل الوثنية .
والطبيعة لقوية التي كانت تحتشد لتحرس آلهة قریش من زحف الدين
الجديد ، وثبت الآن وثبة في الضياء إلى الجانب الآخر من أرض المعركة
بكل بأسها وبكل قوتها ، إبان لحظة حاسمة أجاد توقيتها وأحسن إعدادها
قدر حكيم عليم . . . !

لقد كان « عمر » يذود عن مقدسات الجاهلية ، يوم كان يؤمن
أنها حق . . .

وهو الآن وقد أسلم وجهه لله ، سيضع كل حياته وقوته في خدمة دين ،
آمن أنه الحق . . .

ذلك أنه رجل يسير وفق إيمانه واقتناعه ، لا وفق هواه . . .
بيد أن إيمانه الأول وإيمانه الأخير لا يستويان .



فإيمانه القديم ، إيمان لا برهان له - برهانه التقليد الذى يحجب
عن العقل ضوء الحقيقة ، ويحرم القلب من بهجة الصدق .

أما إيمانه الجديد فمعه برهان . أى برهان . . ! !

• إن الله الذى يعبدّه اليوم ليس من حجر ولا من مدّر . إنما هو
نور السماوات والأرض ، على كل شيء قدير ، وبكل شيء عليم .

• والداعى إلى الدين الجديد ، ليس واحداً من طراز أولئك الكهنة
الذين يرتزقون بالأصنام ، ويستمدون سلطانهم من جهالة الناس وترويج
الأساطير . . إنما هو « محمد » الذى لم يكن صدقه ولم تكن أمانته
موضع ريبة أو شبهة طوال الأربعين عاماً التى قضاها بين قومه عابداً ،
قانتاً ، طاهراً ، باهراً .

• وزملائه الجدد ، إخوانه فى هذا الدين ، ليسوا على شاكلة الآخرين
الذين لا همّ لهم سوى اللهو واللعب ، والميسر والضياع .

إنما هم رعيّة عظيم وضع وزره ، ونَصّاً عن نفسه غرور الحياة الدنيا ،
وتبياً لرسالة كبرى وجهاد عظيم .

أجل . . إن الناس الذين هنا . مع محمد رسول الله ، قد وجدوا
غرضاً عظيماً يحيون من أجله أما الآخرون الذين خلّفهم « عمر »
وراء ظهره فيتكفأون على موائد الميسر يزادون بها سفاهة ، أو يتخلّقون
حول الأعلام يستفتونها فى حظوظهم العائرة . . . أو يطوفون حول أصنام
من حجارة نحتوها بأيديهم ثم خرّوا لها سجّداً .

هنا إيمان حق ، معه من الله برهان .

هنا إيمان يرفع الرءوس عالية . ويصل الإنسان بالله دون ما حاجة إلى
وسيط أو شفيع .

وطبيعة كطبيعة «عمر» ، ترفض التبعية ، وتستعلى على الإذعان والرضوخ ، ليس لها مجال حيوى ولا مُناخ طبيعى إلا فى دين كهذا الدين حيث يقف الناس سواسية كأَسنان المشط ، وحيث أكرمهم عند الله أنقاهم ، وحيث يَعْبَقُ الظهر ويتضَوَّع الحق ، وحيث يتلو «محمد» آيات ربه فتبدى من خلالها معالم الحياة الوافدة ، والمصابير الواعدة وتسمع الألباب فيها صلصلة الحقيقة ، وتجد الأفئدة معها برّد اليقين . . ! !

• • •

إن القوة نفسها والأصالة نفسها ، تعملان فى الطبيعة الفريدة «لعمر» بعد أن صار الإسلام له ديناً . ولكن هذه الطبيعة بعد الإسلام تتفوق تفوقاً بعيداً عنها قبل الإسلام . ذلك أنها وجدت نُهاها ، وهُداها ، ولم يعد مجالها تلك الأصنام الهامدة حول الكعبة ، أو تلك الشئون الضحلة لحياة مكة ، بل تعلقت هذه الطبيعة بالسما والارض جميعاً ، وصار موضوع نضالها ديناً يدرك بفطنته المشرقة أنه لن يقتصر على أرض الرمال ، والإبل ، والشعر ، بل سيزحف مشرقاً ومغرباً حتى يغمر العالمين . . ! !

من أجل هذا يبدأ القلق الذكى فى الطبيعة العمرية من أولى لحظات إسلامه . فيقول لرسول الله عليه السلام :

— « أَلَسْنَا عَلَى الْحَقِّ فِي مَمَاتِنَا وَمَحْيَانَا . . ؟ ؟ » .

ويجيبه الرسول : « بلى يا عمر . والذي نفسى بيده إنكم لعلّى الحق إن مِتُّم وإن حَيِّتُم » .

يقول «عمر» : « فقيم الاختفاء إذن . . ؟ والذي بعثك بالحق لتُخْرِجَنِّ ، ولنُخْرِجَنَّ مَعَكَ » .



ويخرج الرسول والمسلمون معه في صَفَيْنِ . « عمر » في صف ،
و « حمزة » في الصف الآخر
وبهذه الخطوات التي استحثها « ابن الخطاب » ، بدأ الزحف الطويل
المبارك الذي استمر ألفاً وأربعمائة عام . ولا يزال . . !
إن الرجل الذي جاء منتضياً سيفه ليقتل رسول الله ، قد تحول في لحظات
سعيدة إلى مؤمن بالله وبرسوله . فماذا عساه يفعل الآن ؟
ما الامتداد الذي ستواصل طبيعته المسير فيه .
وما ردُّ الفعل الذي سيكيف وجهتها الجديدة ؟
إن خواطره السريعة لتَهْلُ . . وكأنها تتحرك وفق « خارطة » مفصلة
قد وُضعت سلفاً . .
ولسوف يُتابع عمر « المسلم » أداءً للمهمة التي بدأها عمر « الوثني »
ولكن في مستوى أعلى ، وغاية أرفع . .
أجل ، لقد خرج من داره مُنتضياً سيفه قاصداً دار الأرقم ليصرع
الباطل .
حسن . فليمض لغايته ، وليواصل مهمته . . غير أنه الآن لن يصرع
الحق الذي كان يتوهمه باطلاً . . بل سيصرع الباطل الذي طالما توهمه
حقاً . . !
سيصرع الباطل الذي هو باطل ، والذي انخدع « عمر » عن زَيْفِهِ
وحقيقته فترة من الزمان .
وإنه الآن ، وقد كُشِفَ عنه غطاؤه ، لَيُدَوِي بصوته الجسور :
- « والله ، لن أترك مكاناً جلست فيه بالكفر إلا جلستُ فيه
بالإيمان » . . !

وإن مع طبيعته من النداء والمقدرة ما يجعلها مهياة للعمل دوماً ،
واضعة عينها على الهدف أبداً .

وهو لهذا وبهذا ، رجل لا يعرف أنصاف الحلول ، ولا ينام على الضيم
لحظة من نهار أو مساء . . . والضيم عنده أشمل وأعم من أن يكون رهقاً
ينزل به ، أو خسفاً يُسأمه . . . والضيم أيضاً أن يعجز عن تحقيق ذاته ،
وإنجاز مشيئته ، وبلوغ الأمر الذي يريد .

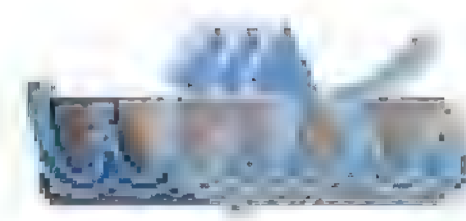
وهكذا رأى من الضيم أن يترك معالم جاهليته تعيش ولو خاية كابية ،
ومن ثم فإن آثار قدميه في طرقات مكة حيث كان يذرُعها مندداً بالإسلام ،
ومتعقباً ذويه ، لا بد أن تذوب وتلاشي في خطواته الجديدة الثابتة التي
سيذرُع بها الطرقات نفسها مُسبحاً بحمد الله ومقدساً له . . .

وكل مكان رفع فيه عقيرته لاهجاً بأصنام قريش . لا بد أن يجلجل فيه
« لا إله إلا الله ، محمد رسول الله » . . . !

أجل ، سيتعقب « عمر » كل حركاته ، وكل كلماته ، وكل خلجاته
التي ظلت تحمل سخريته بدين الله مدى ستة أعوام ، منذ بدء الرسالة حتى
يوم إسلامه . . .

سيتعقبها في كل مظانها ومواطنها ، وسيضع مكان كل سيئة حسنة .
سيقتلع جميع الأشواك التي ملأ بها طريق « محمد » وصحبه ،
وسيغرس مكانها أزاهير . . . سيزرعها حباً ، وتفانياً ، وسيشترى أمن هذا الدين
بحياته ، بجميع حياته . . . !

إن طبيعته تنادى الزمان والمكان ، بل تُلغيهما إلغاء لتظل لها سيادتها
وتفوقها . فإذا أخطأ عمر في زمان ما ، في مكان ما . . . ثم أراد أن يصحح
خطأه ، فليس يكنى فطرته الفذة النادرة أن تتجنب الخطأ . . . بل هي تريد



اقتلعه تماماً ، واقتلاع الزمان والمكان اللذين كانا للخطأ وعاء . .
ومن ثمّ فهي تأتي إلا أن تعود للمكان نفسه ، ولو استطاعت لاستردّت
الزمان نفسه لتقول إن ذلك الخطأ لم يكن . ولا كان المكان الذي شهد ،
ولا الزمان الذي احتواه . . . ! ! !

من أجل هذا مضى إلى كل مكان جلس فيه بالكفر ، فجلس فيه
بالإيمان - أكان ذلك كافياً . . ؟

لا ، فهناك عمل كثير وقدير ، سيواصله عمر حتى يحسّ أنه قد
طهر نفسه من كل آثام جاهليته . .

فهو يذكر أن تمسكه السالف بدين قريش ، كان من أهم أسباب
الاضطهاد الذي لقيه الرسول وصحبه . . واليوم وقد آمن ، فلا بد أن يكون
إسلامه عاملاً حاسماً في شدّة زناد المقاومة الإسلامية .

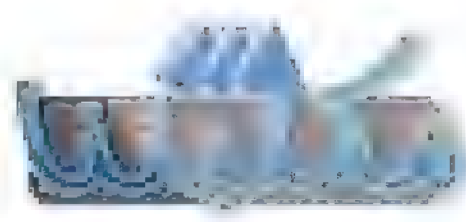
أجل بالأمس كانت وثنيته من الأسباب التي حملت المسلمين وهم
قلة ، على الفرار بدينهم إلى « دار الأرقم » حيث يعبدون الله خفية . .
واليوم ، لا بد أن يكون إسلامه عاملاً حاسماً في الجهر بالدعوة ونبذ
التخفي والمداراة

وإنه ليذهب إلى رسول الله فيقول :

- « بأبي أنت وأمي يا رسول الله ، ما يحبسك ، فر الله ما تركت
مجلساً كنت أجلس فيه بالكفر ، إلا أظهرت فيه الإيمان غير هائب ولا
خائف - ألا إننا لن نعبد الله سرّاً بعد اليوم » . .

ويستجيب الرسول لرأيه ، وتخرج الدعوة من مكمنها إلى أرض الله
الواسعة .

أفهل يكتفى عمر بذلك . .



كلا ، فلا يزال ثمة خطوة تبهر الألباب حقاً .

لقد تذكر « عمر » أنه بالأمس كان كفار قريش يأخذهم الزهو لأن « عمر » يضرب بيده أصحاب « محمد » . . فليمنح المسلمين اليوم زهواً مثله . . وهو إذا كان لن يستطيع الآن أن يعلو بقبضته رءوس صناديد قريش وظهورهم ، فليرفع من شأن العذاب الذي يلقاه ضعاف المسلمين بأن يشاركهم فيه ، وليأخذهم الزهو ، بأن « عمر » الجسور العملاق المهيب يضرب مثلما يضربون ، ويضطهد كما يضطهدون . . . ! ! !

نعم . . لن يظل اضطهاد قريش وفقاً على « بلال » ، و « خباب » ، و « عمار » ، و « صهيب » ، وإخوانهم من الفقراء والمستضعفين ، بل لا بد أن يصلوا معهم قتي الفتيان هذا ، الذي تسبقه هيئته ، والذي تنخلع أمام سطوته الأفئدة والقلوب .

لا بد أن يضرب « عمر » كما يضربون ، وبهذا لا يصير ضربهم وتعذيبهم ذلة تكسر نفوسهم ، وتدغدغ كرامتهم ، وبهذا أيضاً يتم « لعمر » إسلامه ، إذ تم له المساواة مع المسلمين في دفع الثمن الذي يشترط به راية الله . . . ! !

هكذا فكر « ابن الخطاب » . . هكذا فكر صاحب الطبيعة القوية والفطرة السوية .

ولكن أتى له هذا ، وهو المرهوب الجناح إلى الحد الذي يجعل مجرد التفكير في مشاناته مغامرة خاسرة . . ؟

إذا أراد « عمر » أن يكون الظافر المنتصر ، فلن يُعييه السيل ، أما أن يكون المضروب المنهزم ، فهذه هي المشكلة الكبرى التي يحتاج الظفر بحلها إلى جهد كبير .

هذا السلوك الباهر الذي يتبدى من « عمر » ، إنما ينبثق من طبيعة استوفت كل عناصر الكمال ، والسؤدد . طبيعة لا يرحم إخلاصها للمسئولية شيء مآ ، ولا يشغلها عن صقل جوهرها شاغل . .

والرجل الذي وقف موقفه هذا أول إسلامه ، هو الذي سنلتقى به فيما بعد . أميراً للمؤمنين ، وجيوشه تثل سلطان كسرى وقبصر فيصعد المنبر بعد أن دعا المسلمين للاجتماع ، ثم يقول :

- « أيها الناس : لقد رأيتموني وأنا أرعى غنم خالاتي من بني مخزوم نظير قبضة من تمر أو من زبيب . . .
ثم ينزل من على المنبر بين دهش المجتمعين وتساؤلهم . .
ويتقدم منه رجل لم يطلق على ما رأى صبراً ، وهو « عبد الرحمن ابن عوف » ويقول له : ما أردت إلى هذا يا أمير المؤمنين ؟ ؟
فيجيبه « عمر » :

- « ويحك يا ابن عوف ، خلوت بنفسى فقالت لي : أنت أمير المؤمنين ، وليس بينك وبين الله أحد ، فمن ذا أفضل منك . . ؟ فأردت أن أعرفها قدرها » . .

هذه طبيعة مستقيمة ، ليس بداخلها عوج ، ولا تصبر لحظة على ما يحول بينها وبين رؤية الحق واتباعه .
ولقد جعلت هذه القطرة القويمة صاحبها رجل صدق عظيماً ، لا يبغي على ما يعمل جزاء أو شكوراً . . إنما يعبر عن طبيعته المثلثة التي وضعها في خدمة الله ، ونذر لها دينه . .
وكلما ملأت الرّحب بنشاطها الفذ ، وقدرتها الهاطلة . .



هذا السلوك الباهر الذي يتبدى من « عمر » ، إنما ينبثق من طبيعة استوفت كل عناصر الكمال ، والسؤدد . طبيعة لا يزحم إخلاصها للمسئولية شيء مآ ، ولا يشغلها عن صقل جوهرها شاغل . .

والرجل الذي وقف موقفه هذا أول إسلامه ، هو الذي سنلتقى به فيما بعد . أميراً للمؤمنين ، وجيوشه تثل سلطان كسرى وقيصر فيصعد المنبر بعد أن دعا المسلمين للاجتماع ، ثم يقول :

- « أيها الناس : لقد رأيتموني وأنا أرعى غنم خالاتي من بني مخزوم نظير قبضة من تمر أو من زبيب » . .
ثم ينزل من على المنبر بين دهش المجتمعين وتساؤلهم . .
ويتقدم منه رجل لم يُطق على ما رأى صبراً ، وهو « عبد الرحمن ابن عوف » ويقول له : ما أردت إلى هذا يا أمير المؤمنين ؟ ؟
فيجيبه « عمر » :

- « ويحك يا ابن عوف ، خلوت بنفسي فقلت لي : أنت أمير المؤمنين ، وليس بينك وبين الله أحد ، فمن ذا أفضل منك . . ؟ فأردت أن أعرفها قدرها » . .

هذه طبيعة مستقيمة ، ليس بداخلها عوج ، ولا تصبر لحظة على ما يحول بينها وبين رؤية الحق واتباعه .
ولقد جعلت هذه الفطرة القويمة صاحبها رجل صدق عظماً ، لا ينبغي على ما يعمل جزاء أو شكوراً . . إنما يعبر عن طبيعته الممتلئة التي وضعها في خدمة الله ، ونذرهما لدينه . .
وكلما ملأت الرّحب بنشاطها الفد ، وقدرتها الهاطلة . .



وكلما أخرجت من خبئها وراثتها النفسى الذى لا ينفد .
وكلما نسجت لله راية . وهدمت للشرك قلعة ، وأدّت لإنسان حقاً .
كلما فعلت هذا ، كان عمر سعيداً جداً سعيد . . . ! ! !



الفصل الثاني

مَا تَقُولُ لِرَبِّكَ غَدًا؟





لا شيء يميز الطبائع المتفوقة السويّة ، مثل تأيها عن الغرور . .
ولو كان ثمة رجل ، لا بد للغرور أن يتسور حصونه المنيعه لفرط
مزاياه وروعة أمجاده وانتصاراته ، لكان « عمر » . .
فهو يدخل الإسلام في حفاوة بالغة من الرسول وصحبه .
وهو يرى كيف صار الإسلام ديناً جهّورى الصوت ، صادح الكلمة ،
في اليوم نفسه الذى اعتنقه فيه .
ويبصر المسلمين الذين كانوا من قبل يستخفون من طغاة مكة ،
بواجهون اليوم الأذى في شموخ ، ويرجون مكة بتكبيرهم بعد أن صار
« لعمر » بينهم مكان .
ويرى رسول الله ينعت بالفاروق ، بعد أن فرق الله بإسلامه بين الحق
والباطل ، وبين الملاينة والمواجهة .
ويرى نفسه يقترح على رسول الله بعض آرائه ، فلا يوافق الرسول
فحسب ، بل ينتزل به الوحي ، ويصير قرآناً يُتلى



وفيا بعد . يُضحى خليفة لرسول الله بعد أبي بكر ، وأميراً للمؤمنين ،
تنتفح في أيامه « بوابات » العالم للدين الله ، وتزحم راياته جو السماء في
كل أفق .

كل هذا ، ألا يجد الغرور من خلاله ثغرة ينفذ منها ، إن لم يجد أكثر
من الثغرات ؟؟ . . !

ومع ذلك ، فلا نكاد نعرف نفساً امتنعت على الغرور وتكسرت أمام
حصونها المنيعه كل محاولات ، مثل نفس هذا الرجل الفرد ، « عمر » . !
فمن أين له هذا . . ؟

لا ريب أن لطبيعته واستعداده الفطرى الأثر الكبير الناجع .

ولا ريب أيضاً في أن الطريقة التي اتصلت بها هذه الطبيعة بالله
قد أفاءت عليها مدداً لا يفنى ومقدرة لا تتلجلج . وعزواً كاملاً عن كل ما في
الحياة الدنيا من غرور وزهو .

إن « عمر » نفسه يردُّ إلى الله ، وإلى الدين الذى انتهج نهجه كل
ما معه من فضائل ، وهُدًى ، واقتدار . .

ولطالما كان يقول لإخوانه : « لقد كنا ، ولسنا شيئاً مذكوراً حتى
أعزنا الله بالإسلام ، فإذا ذهبنا نلتمس العز في غيره ذلنا » . .
فلننظر كيف كانت علاقة « عمر » بربه . .

لننظر كيف التقت طبيعة قوية . بنسك قوى ، لينجبا الرجل القوى
الأمين .

ولسوف نجد كل تصرفات « عمر » تسير وفق إجلال الله فريد
أجل ، إن « عمر » كىخشى ربه خشية ، ويوقره توقيراً ، حتى إنه



ليكاد يذوب ويتحلل كلما هومت حوله من بعيد ومضة من ومضات ربه
ذى الجلال والإكرام .

وكان لا يفتأ يردد لنفسه هذا اللحن المهيب : « ما تقول لربك
غداً ؟ ! »

نعم . . . « ما تقول لربك غداً ؟ . . . »

عبارة قد نتلوها نحن في دعة ويسر ، أما هو فكانت تزلزله زلزالاً
شديداً . . . ! !

يقول الأحنف بن قيس :

- « كنت مع عمر بن الخطاب فلقبه رجل فقال : يا أمير المؤمنين
انطلق معي فأعدني على فلان فقد ظلمني . . فرفع عمر درته وخفق بها
رأس الرجل وقال له : تدعون أمير المؤمنين وهو معرض لكم ، مقبل عليكم ،
حتى إذا شغل بأمر من أمور المسلمين أتيتوه : أعدني . . أعدني . .
» فانصرف الرجل غضبان أسيفاً ، فقال عمر : على بالرجل .

« فلما عاد ، ناوله مخففته وقال له : خذ واقتص لنفسك مني .

» قال الرجل : لا والله ، ولكني أدعها لله . . وانصرف ، وعدت مع

عمر إلى بيته فصلى ركعتين ثم جلس يحاسب نفسه ويقول :

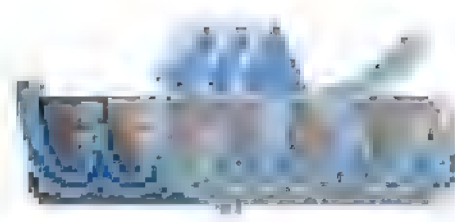
- ابن الخطاب . ؟ كنت وضيعاً فرفعك الله ، وكنت ضاللاً فهداك

الله ، وكنت ذليلاً فأعزك الله . . ثم حملك على رقاب الناس ، فجاءك رجل

يستعديك فضربته ، فماذا تقول لربك غداً إذا أتته ؟ ! !

• • •

ما تقول لربك غداً . . ؟



في هذه العبارة ، يتمثل دين عمر ومناهجه ، وتستمد حياته معاييرها وموازينها .

وفيها يتمثل جواز مروره إلى الدنيا ، وجواز مرور الدنيا بكل طبياتها إليه .

فَأَمَامَ كُلِّ لُقْمَةٍ شَبِيَّةٍ .. وَأَمَامَ كُلِّ شَرْبَةٍ بَارِدَةٍ .. وَأَمَامَ كُلِّ ثَوْبٍ جَدِيدٍ تَسَاقُطُ دُمُوعُهُ .. تِلْكَ الدُمُوعُ الَّتِي تَرَكْتَ تَحْتَ مَقْلَتَيْهِ خَطِئِينَ أَسْوَدِينَ مِنْ فَرْطِ بَكَائِهِ ، وَيَصْلُصِلُ دَاخِلَ نَفْسِهِ هَذَا التَّنْذِيرُ « مَا تَقُولُ لِرَبِّكَ غَدًا » .. ؟

هذا هو جَبَّارُ الجاهلية ، وعَملاقُ الإسلام .
هذا هو أمير المؤمنين الذي تفتحت لأعلامه الخافقات أقطار الدنيا ، واستقبل الناس جيوشه كأنها البُشَرِيَّاتُ .
هو ذا ، يَوْمُ النَّاسِ فِي الصَّلَاةِ فَيَسْمَعُ بَكَاءَهُ وَنَشِيجَهُ أَصْحَابُ الصَّفِّ الْآخِرِ !

وها هو ذا يعدو ، ويهرول وراء بعير أفلت من معطنه ، ويلقاه « عليّ ابن أبي طالب » فيسأله : إلى أين يا أمير المؤمنين ؟
فيجيبه : بعيرٌ نَدَّ من إبل الصدقة أطلبه .

يقول له « عليّ » : لقد أتعبت الذين سيجيئون بعدك .. !

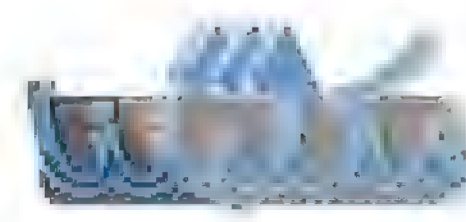
فيجيبه « عمر » بكلمات مُهْدِجَةٍ :

- « والذي بعث محمداً بالحق ، لو أن عَنَزاً ذهبت بشاطئ

الفرات ، لأخِذَ بِهَا عَمْرُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » .. !

أَكَانَ « عمر » يخاف الله خوف العبد الذي يُرْهَبُهُ قَرَعُ الْعَصَا وَكَلْدَعُ

السياط .. ؟



لا . وإنما كان يخشاه خشية الحر الذي يرجو لربه وقاراً ، ويضرع
إليه إجلالاً وإكباراً ، ويخجل أن يلقاه بتقصير - أى تقصير . . !
وهذا هو نشيده دوماً :

- « كنتَ وضعياً فرفعك الله ، وكنت ضالاً فهداك الله ، وكنت ذليلاً
فأعزك الله ، فما تقول لربك غداً إذا أتته ؟ . . !

• • •

ولكن ، لم كل هذه الخشية الضاغطة . والحياة الداهم ؟
إن « عمر » قد تأدب على يدى رسول الله أحسن تأدب ، وإنه ليتابع
الرسول في غير جَنَفٍ أو مِيلٍ ، وإنه لَذُو نُسْكَ عَظِيمٍ ، وإنه لَنَسِيجٌ وَحْدِهِ
في ورعه ، وإخباته ، وزهده ، وتقواه .

أفلا يُقَى هذا على نفسه القلقة كثيراً من الطمأنينة والراحة ؟
بلى يُقَى . . لو كان إنساناً آخر غير « عمر » أما هو فلا يرى في هذا
النُسْكَ كله سوى جُهدٍ المُقِلِّ العاجز ، ولا يرى في توفيق الله له سوى نعمة
تستوجب شكراً يليق بها . .

ذابت يوم ، يقول جليسه « أبى موسى الأشعري » :
- « يا أبا موسى ، هل يَسُرُّكَ أن إسلامنا مع رسول الله وهجرتنا
معه ، وشهادتنا ، وعملنا كله يُرَدَّ علينا ، لِقَاءً أن ننجو كَفَافاً ، لا لنا
ولا علينا ؟ .

فيجيبه أبو موسى « لا والله يا عمر ، فلقد جاهدنا ، وصَلَّينا ، وصُمْنَا ،
وعملنا خيراً كثيراً ، وأسلم على أيدينا خلق كثير وإنا لَنرجو ثواب ذلك » .
فيجيبه « عمر » ودموعه تتحدَّر على وجنتيه كحَبَّاتِ لُؤلؤٍ منثور :



- « أمّا أنا ، فوالذي نفس عمر بيده لو ددّت أن ذلك يُردّ لي ،
ثم أنجو كفافاً ، رأساً برأس » . . . ! !

انظروا إلى أي مدّي بهاب الله ويستحي من جلاله ! !
إن رسول الله بشره بالجنة .

وإنه لأقوى من كل شهوة وزلة ، حتى لكأنه معصوم من الخطأ
عصمة كاملة . . . ! !

ومع هذا يقف دائماً من الله موقف الخشية والحذر والحياء . . .
ولم لا يكون كذلك ، وهو يرى رسول الله نفسه ، يقضي ليلته كله
متهجداً متعبداً ، ونهاره كله صائماً ومجاهداً ، فإذا قيل له : يا رسول الله ،
لم تتعب نفسك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ يجيب عليه
السلام قائلاً : « أفلا أكون عبداً شكوراً » . ؟

إنه توقير الله أكثر ما يكون التوقير ، وشكرانه أكثر ما يكون الشكران . .
وهذه هي المدرسة التي تربي فيها « عمر » وتخرج
مدرسة لو لم يخف أهلها الله ، ما فكروا في عصيانه ، ولو لم يكن
للإثم عقوبة ، ما فكروا في أن يأتوا ، ولو قال لهم الله : اعملوا ما شئتم
فقد غفرت لكم ، ما خطر ببالهم قط أن يعملوا إلا ما يرضى ربهم ويحب . .
ذلك أن علاقتهم بالله لم تكن بواعثها الفرع . بل كانت حب الله
وتوقيره ، والحياء منه .

وإن إنساننا الباهر العظيم « عمر » . ليمثل قمة هذا الفهم السديد .
إنه على يقين بأن أحداً لا يستطيع أن يشكر الله حق شكره مهما تكن
حياته فاضلة عادلة مستقيمة .

وإنه ليعلم أن كل شكر لله . إنما هو نعمة جديدة ، تستأهل شكراً جديداً . .



وهو يعلم أن ما أفاء الله عليه من نعمة الإيمان والهدى والإمارة إنما هي من محض فضله سبحانه وتعالى ، وأن الله كان قادراً على أن يختص بهذا سواه ، أما وقد آثره هو وقال له : إليك منى هذه العطايا يا « عمر » . . . فإن هذا ليُجعله يذوب ، ويذوب . . . وينكمش ثم ينكمش . . . ويقول وقد فجر حياته هذا الشعور : « يا ليت أم عمر ، لم تلد عمر » . . . !
أو يردد : « ما تقول لربك غداً » . . . ؟ !

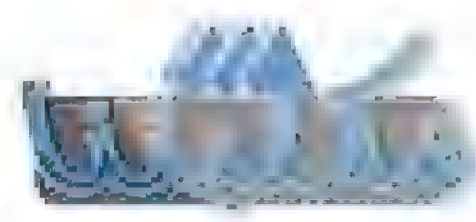
إنه مصمم على أن يتفوق على ذاته ، ويجاوز كل حدود قدراته حتى يحقق أكبر حظ ممكن من العرفان والشكر لبارئه وخالقه وربّه .
« فعمر » الذي يقف خلف رسول الله - واحداً - من أصحابه . . .
و « عمر » الذي يصير فيما بعد خليفة لرسول الله وأمينه على أصحابه . . .
« عمر » هنا وهناك ، هو هو ، ذلك الإنسان الخاشع الضارع الأبواب الذي لا يرجو في دنياه وأخراه سوى أن ينجو كفافاً لا وزر ولا أجر . . . !

إنه لا يطمع في أكثر من ألا يقف بين يدي ربه خزيان بسبب خطأ ارتكبه ، أو مظلمة قصر في درئها ، أو نعمة لم يبذل الجهد في شكرها ! !

لا شيء يُؤرقه في نومه ، ويقلقه في صحوه مثل الخشية من أن يسأله ربه غداً في عتاب « لماذا فعلت هذه يا عمر » . . . ؟ ؟

و « هذه » التي هي رمز لأي فعلة مجهولة ، تحمله على أن يقضي عمره كله جواباً داخل نفسه وخارجها باحثاً عن « هذه » . . . ومحاذراً أن يقترب هفوة وهو لا يدري . . . ! !

من أجل هذا يترك الطيبات والمباهج التي أحلها الله خشية أن تنتكّر فيها



« هذه » التي يخشى السؤال عنها من الله . ! !

لنقرأ بعض فقرات كتابه إلى عامله على البصرة « عتبة بن غزوان »
 « . . . وقد صحبت رسول الله ، فعزّزت به بعد الذلة ، وقويت به بعد
 الضعف ، حتى صرت أميراً مُسلّطاً ، ومَلِكاً مطاعاً ، تقول فيسمع منك ،
 وتأمر فيطاع أمرك . فيالها نعمة ، إن لم ترفعك فوق قدرك ، وتبْطِرْكَ على
 من دونك

« تحوُّط من النعمة تحوُّطك من المعصية ، قلَّهِيَ أخوفهما عندي
 عليك ، أن تستدرجك وتخدعك ، فتسقط سقطة تصير بها إلى جهنم ،
 أعيدك بالله وأعيد نفسي من ذلك » . . ! !
 ويحدثنا جابر بن عبد الله فيقول :

- « رأى عمر بن الخطاب لحماً معلقاً في يدي ، فسألني : ما هذا
 يا جابر ؟ قلت : هو لحم اشتيئته فاشتريته ، فقال : أو كُلِّمَا اشتيئتَ
 اشتريت ، أما تخاف أن يُقال لك يوم القيامة « أذهبتم طيباتكم في حياتكم
 الدنْيا » ؟ . . !

• • •

تري ماذا يكون موقفه من السيئات ، هذا الذي يخاف على دينه من
 الطيبات . ؟ !

ولكن ما شأن السيئات بعمر ، وهي التي تفرّ منه مذعورة إذا أبصرت
 نوره على بعد فراسخ ؟ ! !

لقد حرم « عمر » نفسه من طيبات كثيرة ، ومن مناعِم لم يحرمها الله
 عليه ؛ لأنه كان يرى نفسه عاجزاً عن شكر القليل ، فلم يرد أن يتورط



في عجز أكثر أمام النعم الكثيرة .. ولأنه كان يحمل في أمانة كاملة
مستولية القدوة .. !!

ولو شاء أن يظفر بالمناعم المباحة على كثرتها لظفر بها جميعاً ، ولكن
بطولة روحه وعظمة نفسه ، واستقامة نهجه حملته دائماً على أن يلتزم الكفاف
ويختار الشَّطَفَ

زاره يوماً « حفص بن أبي العاص » ، وكان « عمر » جالساً إلى طعامه ،
فدعا إليه حفصاً ، ولكن حفصاً رأى القديد اليابس الذي يأكل منه
« عمر » ، فلم يشأ أن يكبد نفسه عناء ازدرأده ، ولا أن يُجشِّم معدته
مشقة هضمه ، فاعتذر شاكراً .

وأدرك أمير المؤمنين سرَّ عزوفه عن طعامه ، فرفع بصره نحوه وسأله :

- ما يمنعك عن طعامنا ؟

ولم تنقص الصراحة حفصاً فقال : إنه طعام جَشِبَ غليظ وإني راجع
إلى بيتي فأصيب طعاماً ليناً قد صنع لي ..

فقال « عمر » :

- « أتراني عاجزاً عن أن آمر بصغار المعزى ، فيلقى عنها شعرها ،
وآمر برقاق البر ، فيخبز خبزاً رقيقاً ، وأمر بصاع من زبيب فيلقي في سمن .
حتى إذا صار مثل عين الحجل صُبَّ عليه الماء ، فيصبح كأنه دم غزال
فأكل هذا وأشرب هذا .. ؟؟ » .

فقال له حفص وهو يضحك : إنك بطيِّب الطعام لخير .. !!

واستأنف « عمر » حديثه فقال

- « والذي نفسي بيده ، لولا أن تنقص حسناتي لشاركتكم في لين
عيشكم - ولو شئتُ لكنتُ أطيبكم طعاماً ، وأرفهكم عيشاً ، ولنحن أعلم



بطيب الطعام من كثير من آكليه ، ولكتنا ندعه ليوم تذهل فيه كل
مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها . . وإني لأستبق طيباتي ؛
لأنى سمعت الله تعالى يقول عن أقوام ، أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا
واستمتعتم بها ! ! !

هكذا عزله حياؤه من الله عن كل ترف ، بل عن كل راحة في الدنيا ،
وإني أن يصيب وأهله من الطعام إلا تقوُّناً ، ومن العيش إلا كفافاً . . . ! ! !

• • •

فإذا جئنا موقفه من السلطان ، حيث يتنازل الناس عن أكثر أعمارهم لقاء
أيام يقضونها سادة حاكمين ، فماذا نجد . . ؟ !
أما هذا السلطان ، على ضخامة ما أحرز منه « عمر » ، فما شقى بشيء
مثلما شقى بأن رأى نفسه خليفة ، وأميراً ، وحاكماً . . ! !
لقد كانت أغلى أمانيه أن يظل « عمر بن الخطاب » ، لا غير . .
فلا هو خليفة ، ولا هو أمير .

ولقد اقتربت منه الخلافة إثر وفاة رسول الله . إذ بسط إليه « أبو بكر »
يمينه في اجتماع السقيفة قائلاً : هات يدك يا « عمر » نبايع لك . . ولكن
« عمر » خلص منها ناجياً ، إذ قال

- « بل إياك نبايع فأنت أفضل مني » .

قال أبو بكر : « أنت أقوى مني يا عمر » .

قال « عمر » : « إن قوتي لك مع فضلك » . وسارع فمد يمينه وبايع

أبا بكر ، وبايعه الناس على أثره . .

وحين كان أبو بكر يودع الدنيا ، ويعهد بالخلافة « لعمر » . كان



« عمر » يتقبل مكرهاً وكارهاً إمارة المؤمنين . ولولا أن يكون باعتذاره عنها في هذا الظرف الحرج الدقيق هارباً من واجب سيسأله الله عنه غداً ، لرفض السلطان وهرب من الإمارة . .

« أيها الناس . . . إني قد وليت عليكم ، ولولا رجاء أن أكون خيركم لكم ، وأقواكم عليكم ، وأشدكم اضطلاعاً بأموركم ما توليت ذلك منكم ، ولكنى عمر انتظار الحساب » . . !

انظروا . . . ولكنى « عمر » انتظار الحساب . . ! !
هذا رجل مشغول لا غير بالكلمة التي سيقولها له الله غداً وبالكلمة التي سيقولها هو لله .

والحظوظ الوافية عنده ليست في منصب أو جاه ، إنما هي في الظفر برضاء الله سبحانه .

وقد عليه يوماً جماعة من المسلمين النازحين . فسألهم عما صادفهم من أخبار الناس في البلاد التي مروا بها . .

فقالوا : أما بلد « كذا » فإنهم يرهبون أمير المؤمنين ويخافون بأسه . .
وأما بلد « كذا » فإنهم جمعوا أموالاً كثيرة تنوء بها السفن وهم في الطريق بها إليك . . وأما بلد « كذا » فإن بها قوماً صالحين يدعون الله لك ويقولون :
« اللهم اغفر لعمر وارفع درجته » . .

فقال « عمر » ، مُعَقِّباً على حديثهم هذا :

— « أما من خافني ، فلو أريد بعمر الخير ما خيفَ منه . . وأما الأموال التي تنوء بها السفن فليبت مال المسلمين . . ليس لعمر ولا لآل عمر فيها شيء . . وأما الدعاء الذي سمعتم بظَهْرِ الغيب ، فذلك ما أرجوه » . . ! !
أجل ، هذا خير ما يرجو « عمر » . . مغفرة ربه ورضوانه . أما

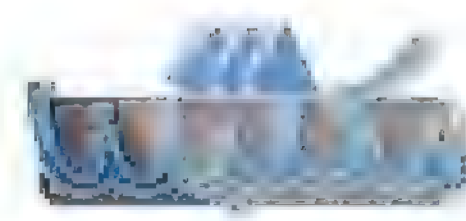


السلطان ، وما حول السلطان من زينة وزخرف ونفوذ ؛ فتلك محنة « عمر » ،
وإنه ليسأل الله أن يختارها في خير وعافية . . !

حين دُعي للمقاء ربه ، واقتربت اللحظات التي سيودع فيها دنيا الناس ،
وكانت مشغلتة الكبرى آنثد اختيار الرجل الذي يسلمه الأمانة والزمَام ،
اقترب منه « المغيرة بن شعبة » قائلاً : أنا أدلك عليه يا أمير المؤمنين ، إنه
« عبد الله بن عمر » . .

هنالك انتفض « عمر » وقال : « لا إربَ لنا في أموركم ، إني ما حمِدْتُها
- يعني الخلافة - فأرغب فيها لأحد من أهل بيتي . إن كانت خيراً فقد
أصبنا منه ، وإن كانت شراً ، فَيَحْسَبُ آل عمر أن يُحاسِبَ منهم رجل واحد
ويُسأل عن أمر أمة محمد . . . ألا إني قد جهدت نفسي وحرمت أهلي . .
وإن نجوت كفافاً لا وِزْر ولا أجر إني لسعيد » . . !
بالله ما أتقاه ، وما أنقاه ، وما أبرّه ، وأطهره . . !
إنه مهموم بما سيقوله لربه غداً .

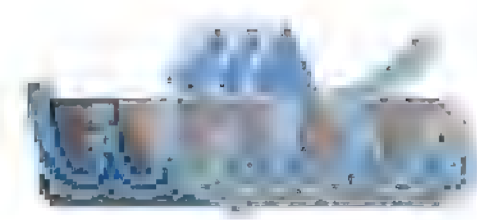
إنه يرفض كل نعيم يخشى أن يلجلج لسانه غداً بين يدي الله .
ويُجفل عن السلطان على فرط عدله وورعه وأمانته ، مخافة أن تتعثر
الكلمات على لسانه غداً حين يلتقي الله . !
إن الكلمة التي سيجيب بها غداً حين يسأله الكبير المتعال ، هي
« البوصلة » التي تتحرك معها وعلى هداها كل ذرات كيانه وروحه .
وهو في شدته حين يشتد ، وفي لينه حين يلين ، إنما يحركه حرصه
الشديد على أن يلتقي الله صادق الحجة .
يقول « لعبد الرحمن بن عوف » :



- « يا عبد الرحمن ، لقد لُنتُ للناس حتى خشيت الله في اللين ،
ثم اشتددت حتى خشيت الله في الشدة ، وأيمُ الله لأنا أشد منهم فرقاً
وخوفاً ، فأين المخرج . . . ؟ ؟ » .
يقول هذا ، ويتحبب بأكياً .
فيقول عبد الرحمن بن عوف ، وهو يتمليّ هذا المشهد الفريد :
- « أفُ لهم من بعدك » . . . !

• • •

تُرى كيف قضى الرجل العظيم تلك السنوات العشر ، والأشهر الستة ،
والأيام الأربعة التي قضاها خليفة للمسلمين وأميراً للمؤمنين ؟ ؟
تري كيف قضاها ، وأمضاها ، وعاناها تحت ضغط هذا الإحساس
الراجف ، ، والقلب الواجف من خشية الله العلى الأعلى . . ؟ .
• وهل سمع الناس في طول دنياهم وعرضها ، بعاهل استحالته كل أبهة
السلطان وبذخه أمام ناظره إلى جمر ملتهب يتوقاه أكثر ما يكون التوقى ،
ويحاول الفرار منه لو يجد للفرار سبيلاً ؟
عاهل ذلك كل سلطانة لخشية الله ، ووفر للناس من الطمأنينة والأمن
قدر ما خاف هو الله . . ؟ .
حاكم لم تنل من سكينته نفسه مهام الأمور وأخطارها ، ولا عقد
ألوية الجيوش الفاتحة وأخبارها ، ومع هذا فقد كان يزلزله زلزالاً شديداً
آهة مظلوم ، أو نقشة مكروب ، أو همهمة حق ضائع يقول له صاحبه
« اتق الله يا عمر » . . . ! !
هل سمع الناس بمثله . . ؟ ! ومتى . . ؟



ذات يوم وهو جالس مع أصحابه اقتحم المجلس رجل مكروب تغشاه
وعشاء السفر ، وإذ يقترب من الناس ويأمرهم يقولون لأحدهم يا أمير المؤمنين ،
يتجه صوب هذا الأمير ، ويقول له في مرارة :

- « أنت عمر ؟؟ ويل لك من الله يا عمر ! » ثم يمضي لسبيله
غير وانٍ ولا مكترث ..

ويلحق بعض الحاضرين بالرجل في غيظ منه وحق عليه ، ولكن
« عمر » يناديهم ويأمرهم أن يعودوا لمجلسهم ، ويهرول هو وراء الرجل
وفؤاده يرتجف .

ألم يقل له الرجل : ويل لك من الله يا « عمر » ؟؟ إنها الطامة إذن ،
وإنه الهول الذي لا يطيق « عمر » عليه صبراً .. !

ويدرك الرجل ثم يعود به ويسأله : « ويلي من الله لماذا ، يا أخا
العرب » ؟؟

فيجيبه الرجل : لأن عمالك وولاتك لا يعدلون ، بل يظلمون .

ويسأل « عمر » : أي عمالي تعني ؟ .. ؟

يقول الرجل : عامل لك في مصر اسمه « عياض بن غنم » .

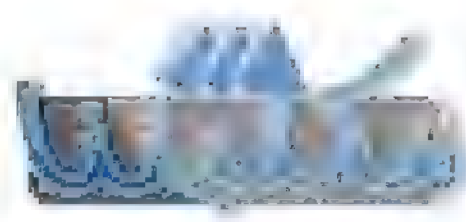
ولا يكاد « عمر » يسمع تفاصيل الشكوى حتى يختار من أصحابه

رجلين ويقول لهما : اركبا إلى مصر ، وآتياي بعياض بن غنم .. ! !

هذا الرجل « عمر » ..

هذا الشامخ العارم الذي يتفجر قوة وجراً وبأساً ..

إذا أردت أن تبصره يرتجف .. كعصفور احتواه إعصار ، فليس



عليك إلا أن تقول له : ألا تتق الله يا « عمر » ؟ ؟
 هنالك تشهد إنساناً قامت قيامته ، ويبدو كما لو كان واقفاً أمام
 الله . . . الميزان عن يمينه ، والصراط إلى يساره ، وكتابه منشور أمام عينيه ،
 والأفق كله يدوي في سمعه :

« اقرأ كتابك ، كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً » . . . !!
 وعلى الرغم من معاناته المضنية لهذه المواقف ، فإنه كان يقرأ بها عيناً
 وبطيب نفساً ، لأنها تذكره بجلال الله وبمقامه ، ولأنها تمنحه اليقين بأنه
 لم يجاوز قدره أبداً كعبد لله ، وخادم للناس . . . !!

لطالما كان يدعو « أبا موسى الأشعري » لينلوه عليه بصوته العذب
 المؤثر آيات من القرآن العظيم ويقول له : « ذكرنا ربنا ، يا أبا موسى » فيقرأ
 أبو موسى ، ويكي عمر . . .
 وكثيراً ما كان يلقي صبيّاً من الصبيان في طرقات المدينة ، فيأخذ بيده
 ويقول له وعيناه تفيضان من الدمع : « ادع لي يا بني ، فإنك لم تُذنب
 بعد » . . . !!

وساعة كان يستقبل الموت ، يقول لابنه عبد الله :
 - « يا عبد الله ، خذ رأسي عن الوسادة وضعه فوق التراب ، لعل الله
 ينظر إليّ فيرحمني » . . . !!
 إن الميزان قد استقام في يد « عمر » تماماً حين أسلم وجهه لله وهو
 محسن .

وإن طبيعته الهادرة الجياشة ، وقدراته الفائقة الغلابة ، قد نهضت
 ثابتة الخطى فوق صراط العدل ، والفضيلة ، والواجب ، حين وثقت بالله
 عراها . وأسست وراء « محمد » خطاها . . .



وليس يُحاذر « عمر » على نفسه وعلى مصيره خطراً مثلماً يحاذر أى
 انزال عن الله ، وأى انحراف عن طريق رسوله
 كان قبل إسلامه يتحرى الصواب ليسير وفقه سيرة جديرة باستعداده ،
 وعظمة شمائله ، وقوة روحه
 أما اليوم ، فقد عرف محض الحق ومحض الصواب حين جاءهم به
 من عند الله رسول كريم ، لا ينطق عن الهوى
 وإن « عمر » ليؤرخ ميلاده بهذا اليوم الذى صافح فيه الرسول وقال :
 « أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله » . .
 فيومئذ ، بل ساعتئذ ، وجد نفسه ، والتقى بمصيره العظيم . .
 وهو حين آمن بالله وبرسوله ، وبدينه ، لم يؤمن إيمان العوام ، ولا إيمان
 المنتفعين ، ولا إيمان الهواة . . بل آمن إيمان العارفين الأبرار .
 وحين سمع لأول مرة آية الله يتلوها رسوله . . تلك الآية التى تقول :
 « أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا ، وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ » ؟ سمعها ، وكأنما
 يسمعها وحده ، وكأنما أنزلت إليه وحده . . وأدرك يومئذ كما أدرك قبلئذ
 أن حياته القصيرة مهما تطل سنواتها لن تغنى عنه شيئاً ، وأنه بحاجة إلى
 ألف حياة مثلها لكى يستطيع أن يصنع صنيعاً يرضيه . . ولكى يستطيع أن
 يعبد ربه ويشكره

من أجل هذا ، كان شديد الخوف على اللحظة العابرة أن تضع وعلى
 الكلمة العابرة أن تنحرف . . وعلى الخلجة العابرة ، أن تزل . .
 كان شديد الخوف على حياته السامقة أن تغيرها خطيئة ، أو تعيبها
 شبهة ؛ لأنها لو كانت ملكاً له لوجب عليه أن يربأ بها عن كل سوء ،
 فكيف وهى فى تقديره ليست حياته ، وليست ملكه إنما هى وديعة الله



عنده . . . والله صاحبها ومالكها وسوف يساهم بها : « أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً ، وأنكم إلينا لا ترجعون » . . . ! !

من أجل هذا ، عاش قلقاً مؤرقاً . . . ولكنه القلق الذكي المبتعث والأرق المفكر الممتلئ . . .

لا ينام إلا غيباً . . . ولا يأكل إلا تقوئاً . . . ولا يلبس إلا خشناً . . . يقظان دائماً . . .

يقول : « إذا نمت الليل أضعت نفسي ، وإذا نمت النهار ضيعت الرعية » . . . ! !

ويسأل كل من يلقاه في لهفة وجد : « قل لي بربك ولا تكذبني كيف تجد عمر . . . ؟ أتحسب الله عني راضياً . . . ؟ أتراني لم أأخذ الله ورسوله فيكم » ؟ ؟ ؟ ! !

وإذا غشيته من مظنة التقصير غاشية ، صاح صيحة مكظومة :

— « يا ليت أم عمر ، لم تلد عمر » . . . ! !

كل هذه الرجفة . . . كل هذا الحياء . . . كل هذا الهم الجليل ،

لأنه لا يدري :

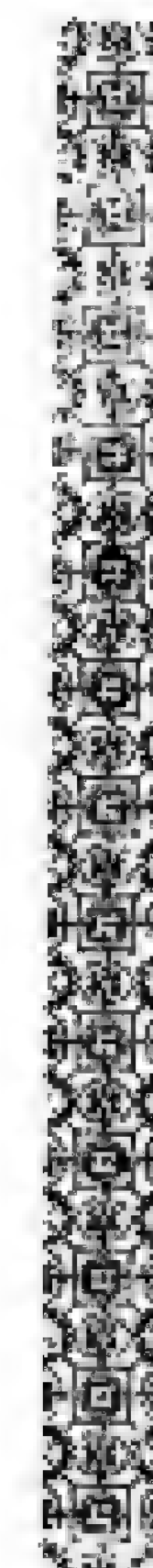
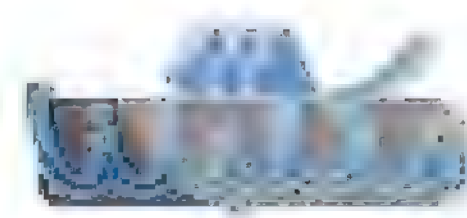
ماذا يقول لربه غداً . . . ! ! !



الفصل الثالث

الإنك ابن أمير المؤمنين؟





رأيناه كيف وُهب طبيعة سوية متفوقة باهرة .
ورأيناه كيف وصل طبيعته هذه بالله ، ووضعها في خدمته وعند أمره .
وإنسان يتوافر له هذا ، لا بد أن يكون إحساسه بالمسئولية مشحوناً
وعارماً

وإن عمر لذلك الإنسان .
ينفعل بالمسئولية . ويتبذل لها ، ويقبل عليها ، في مثل عزم المرسلين . .
والمسئولية لديه لا تتجزأ ، ولا تنوع ، ولا تتفاوت . .
ليس هناك مسئوليات صغيرة وأخرى كبيرة . . مسئوليات عادية وأخرى
فوق مستوى العادة .

هناك مسئوليات وحسب . .
و « عمر » أمام هذه المسئوليات . هو « عمر » الذي يحتشد لكل
تبعة ولكل عمل ، احتشاداً لا تتفاوت درجاته . . لأنه يتصرف وفق طبيعته
القوية الأمانة المؤمنة .



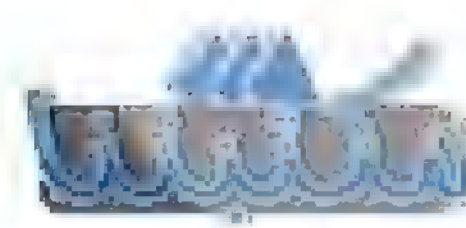
وطبيعته هي الأخرى لا تتجزأ ، ولا تنقسم . . كل عمل من أعمال
 « عمر » نجد فيه « عمر » كله . .
 ضع عينيك على أية واقعة من وقائع حياته ، تجد فيها شمائله كلها -
 عدله ، ورعه ، زهده ، إيمانه ، شدته ، لينه ، عظمته ، بساطته . . ! !
 وهو لا يتحمل من المسؤولية القدر الذي يخصه ، ويرى ذمته ، بل يحمل
 منها القدر الذي يتطلبه الموقف جميعه ، وتحقق به المسؤولية كل ذاتها ،
 ولا يسأل نفسه ساعتئذ إن كان وحده ، أم كان معه نصراء .
 إن بين جوانحه ، وقلبه نفسه ثقاتاً رهباناً ، لا يسأل عن العواقب
 ولا يجرى بين يديها أى تقدير أو حساب . . ! !

• • •

لقد كان يوم أسلم ، العضو الأربعين بين رجال هذه الجماعة المؤمنة
 ولا يكاد يمضى على إسلامه لحظات . أجل لحظات ، حتى يتفرض في
 قلبه الشجاع إحساسه بمسئوليته عن الدين كله ، وعن هذه الجماعة المسلمة
 كلها ، بل وبمسئوليته عن مستقبل الدين وأهله عبر القرون الآتية والدهور
 المقبلة . .

ومن ثم يخرج من فوره معلناً إسلامه على الصورة التي أشرنا إليها من
 قبل . . وهو آتئذ يدرك تماماً أنه لا يعلن إسلامه هو . . إسلام « عمر بن
 الخطاب » . . بل يعلن إسلام التسعة والثلاثين الذين سبقوه إلى الإسلام ،
 والذين يعبدون الله خفية . . - بل يعلن أيضاً إسلام مئات الملايين القادمة
 عبر المستقبل . . ! !

ولا تقف مسئوليته عن هذا الدين الذي اعتنقه بإعلان إسلامه ،



بل تُجاوز ذلك إلى إخراج الإله الخفاء الذي اضطهرهم إليه
اضطهاد قريش ..

وهكذا يذهب إلى رسول الله قائلا :

« والله يا رسول الله لن نعبد الله سرّاً بعد اليوم » ..

وتخرج الدعوة لتواجه خصومها ، وتنادى الموعودين بها . وتلقى قريش
من تكبيراتها المدوية أولى الكلمات في منشور نعيها ، ونعى أصنامها .. ؟ ؟

• • •

كانت هذه أولى بركات « عمر » ..

وكان هذا نموذجاً للأسلوب الذي سيتحمل به « عمر » مسئولياته عن
دين الله ، ودنيا الناس .

إنه أسلوب رجل يرى نفسه تجاه الأحداث والمواقف ، وكأنه المسئول
الأوحد عنها

كل أزمة ستواجه الإسلام والمسلمين ، سيجابها « عمر » ، بوصفه
المسئول وحده عن مقارعتها وحلها .

وإيمانه بمسئوليته هذه سيدفعه إلى أن يرفض على طول الخط كل دنيّة
في الدين ، وكل مُلaine لأعداء هذا الدين .

وعلى الرغم من إيمانه المطلق برسول الله ، فإن مسئوليته ستتحرك في
كل الاتجاهات حتى لو تجعله يبدو - معارضاً - للرسول الذي يقدمه
ويفتديه .. !!

ففي صلح الحديبية يرى « عمر » أن المزايا التي أعطها الرسول عليه
السلام لكفار قريش سخية وكثيرة ، وهو يؤمن بضرورة مناجزتهم ودخول



مكة عليهم طوعاً منهم أو كرهاً لهم ، ما داموا لا يريدون أن يَجْنَحُوا لِلسَّلم ، ويحتكموا إلى الحق .

وما دام الحق وإباضاً في معركة ، فلا بد للحق أن يَسْتَعْلِي ، بدل أن يُهادن . . ولا بد له أن يُناجز ، بدل أن يُسائر . .

هكذا فهم « عمر » المسألة ، وكَوْنُ الرأى ، ولم يكن للجهر به من مقر . .

وهكذا أقبل على رسول الله قبل أن يبدأ الكاتب في تحرير صحيفة المعاهدة وقال :

— يا رسول الله ، أَلَسْنَا على الحق ، وهم على الباطل ؟

قال الرسول : بلى . .

قال عمر : أليس قَتَلْنَا في الجنة ، وقتلناهم في النار . . ؟

قال الرسول : بلى . .

قال عمر : فَعَلَّامٌ نَعطى الدِّينَةَ في ديننا ، ونرجع ولما يحكم الله بيننا

وبيهم . . ؟

قال الرسول : ابن الخطاب . . ؟ إني رسول الله ولن يضيعني الله أبداً .

وترن عبارة « إني رسول الله » في رُوع « عمر » زين الصدق ، ويستنتج

من نطق الرسول بها في هذا المقام ، أن الخطأ أكثر وأبعد من أن تكون

مجرد رأى عابر لرسول الله ، فيسكت . .

ويذهب غير بعيد ، يدير خواطره على الموقف كله ، ويعود إحساسه

العارم بالمسئولية فيغالبه ، ويغريه بالمعاودة ، فينطلق حثيثاً إلى أبي بكر

رضي الله عنه ، ويسير في أذنه الحديث :

— يا أبا بكر ، أَلَسْنَا على الحق ، وهم على الباطل . . ؟



- بلى يا عمر . . !

- فلماذا إذن نعطي الدنيا في ديننا ، ونرجع ولما يحكم الله بيننا

وبينهم . . ؟ !

ويطمئنه أبو بكر إلى أن الله لن يتخلى عن رسوله ، وأن فتح الله

قريب .

ويهدأ « عمر » . . وإن كان هذوؤه هذا لم يمنعه أن يُسبِّح « سهيل

ابن عمرو » مندوب قريش ، بنظرات مضطربة فائكة . . ! !

وعندما مات عبد الله بن أبي بن سلول ، وكان كبير المنافقين في المدينة ،

عارض « عمر » في إصرار ، صلاة رسول الله عليه .

ولنصغ إلى « عمر » نفسه يقص علينا النبأ .

- « لما توفي عبد الله بن أبي ، دعى رسول الله صلى الله عليه وسلم

للصلاة عليه ، فقام إليه . فلما وقف عليه يريد الصلاة تحولت حتى قمت

في صدره ، فقلت يا رسول الله ، أعلَى عدو الله تصلى . . ؟ وأخذت أعدد

أيامه الخبيثة ورسول الله صلى الله عليه وسلم يتسم ، حتى إذا كثرت عليه ،

قال ، أخرعني يا عمر ، إني خبرت فاخترت ، قد قيل لي استغفر لهم ،

أو لا تستغفر لهم ، إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم ، فلو أعلم

أنى إن زدت على السبعين غفر له ، لزدت . . ثم صلى عليه ومشى مع جنازته

وقام على قبره حتى فرغ منه . .

« فعجبت لي ، ولجأتني على رسول الله ، فوالله ما كان إلا يسيراً حتى

نزلت الآية : [وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَداً ، وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ]

فما صلى بعدها رسول الله على منافق ، ولا قام على قبره حتى قبضه الله

عز وجل ! !



هذا المشهد يكشف عن الطريقة التي كان «عمر» يحمل بها مسئولياته في شجاعة وصدق .

فركوب مخاطر الدنيا كلها أهون عليه من أن يقول للرسول : لا . ولكنه إنسان لا يملك أمام مسئولياته خياراً ، وما دام يرى من واجبه أن يقول : لا . . . فليقلها وأمره إلى الله ؛ فإذا استمسك الرسول بموقفه ، يكون «عمر» قد قال كلمته . وأبرأ ذمته ، وليس أمامه بعد هذا سوى سبيل الطاعة والإيمان .

وهو في هذه الواقعة ، قدر أن صلاة الرسول على منافق ضخم كعبد الله بن سلول ، عمل يغري المنافقين بمزيد من اللؤم والصلف ، ويضائل من حرمة الصدق والإخلاص عند كثير أو قليل من الناس .

وإجلاله المسئولية يدعوه لإعلان هذا الرأي ، حتى في مثل هذا الموطن ، حيث وقف الرسول بالفعل ليصلي على جثمان الرجل ، فيعترضه «عمر» . ويقول : أعلى عدو الله تصلي يا رسول الله . . ؟ !

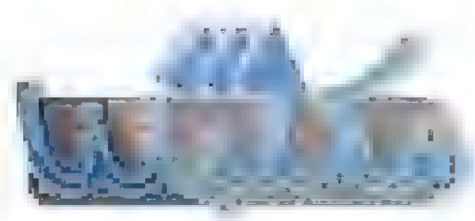
على أن تناول «عمر» مسئولياته ، يبدو أروع وأبهى ما يكون عنده صار أميراً للمؤمنين . . ! !

هنا نلتقي بأعظم آيات التفوق الإنساني . .

هنا ، نبصر نبوغ النفس ، وبطولة الروح . وإعجاز السلوك . . ! !
هنا ، نرى مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا يكاد يخطر بقلب بشر . . !

أجل ، هنا العظام تتفوق على نفسها ، ويرحم بعضها بعضاً هذا «عمر» . . رضي الله عن «عمر» ! ! !

حاكم يحمل مسئولياته على نمط فذ . ويعطى البشر جميعاً إلى



آخر لحظة في الأبد ، درساً في الأمانة - أي درس ، وقدوة في الذمة -
أي قدوة . . . ! !

موقفه من نفسه . . موقفه من أهله . . موقفه من الضعيف ومن القوى
في قومه وأمته . . موقفه من ولاته . . موقفه من أموال الأمة . .
مواقفه هذه ، المترعة بإجلال منقطع النظير لمسئولته تجاه عمله ،
وتجاه أمانة الحكم في كل مجال الحكم ومظاهره . .

أما هو كحاكم ، فقد حرم نفسه لا من الطيبات المشروعة للحاكمين
فحسب ، بل من الطيبات المشروعة للمواطن العادي في كل زمان ومكان .
فعل ذلك بروح المسؤولية التي حيبت إليه أن يكون أول من يجوع
إذا جاع قومه . . وآخر من يشبع إذا شبعوا . . والتي فرضت عليه أن يعاني
كل ما يعانيه الناس من عمل وشظف .

وإنه - رضى الله عنه - ليصور هذا الضمير القوى في فلسفة حكيمة

فيقول :

- « كيف يعنيني شأن الناس ، إذا لم يُصِبنِي ما يُصِيبُهُمْ » ! ! . .
وهكذا رأينا أمير المؤمنين ، يلتزم أكل الزيت ، حين أصاب المسلمين
أزمة شديدة في اللحم والسمن ، ويدمن ابن الخطاب أكل الزيت حتى
تئن أمعاؤه وتقرقر ، فيضع كفه على بطنه ، ويقول :

أيها البطن لتمرئن على الزيت ، ما دام السمن يباع بالأواني ! ! !
وفي عام الرمادة ، وكان عام مجاعة قاتلة في المدينة ، أمر يوماً بنحر
جزور ، وتوزيع لحمه على أهل المدينة . .

وقام المختصون بإنجاز المهمة ، بيد أنهم استبقوا لأمر المؤمنين ، أطيب
أجزاء الذبيحة . .



وعند الغداء ، وجد « عمر » أمامه على المائدة سنام الجزور وكبدته ،
وهما أطيب ما فيه . . ! فقال :

- من أين هذا . . ؟

قيل : من الجزور الذى ذبح اليوم . .

فقال ، وهو يزيع المائدة بيده الأمانة :

- بَخْ بَخْ ، بشس الوالى أنا ، إن طعمتُ طيبها ، وتركت للناس

كراديسها - يعنى عظامها - . .

ثم نادى خادمه أسلم ، وقال له :

- يا أسلم ، ارفع هذه الجفنة . واثنى بخبز وزيت . . ! !

إن قوله : « بشس الوالى أنا ، إن طعمت طيبها » يرسم الصورة الكاملة

المضيئة لروح المسؤولية التى كانت تسيطر على تصرفات ذلك العاهل

المنقطع النظير .

إنه رجل يرى نفسه واحداً من الناس آثره الله عليهم بمزيد من التبعة

والواجب حين ولأه أمرهم . واستخلفه عليهم . ولم يؤثره بامتياز يجعل

الحكم كلاً مباحاً ، وقنصاً بواحاً . . . ! ! !

على أن « عمر » وهو أمير للمؤمنين ، يبذل من الجهد ، ما يشفع له إن

هو امتار لنفسه طعمة طيبة تُعينه وتقويه . .

هذا منطقنا ، وهو منطق عادل فى رأينا . .

أما « عمر » ، فصاحب منطق آخر . . وهو يعرف العدل فى ذُراه

العالية التى تنقطع الأنفاس دون بلوغها . . ! !

هو يدرك أن مسؤوليته تقتضيه أن يوفر للناس عيشهم ، فإذا قعدت به

دون هذا ظروف لا يملك لها دفعا ، تكون مسؤوليته أن يسوى بينهم بالحق .



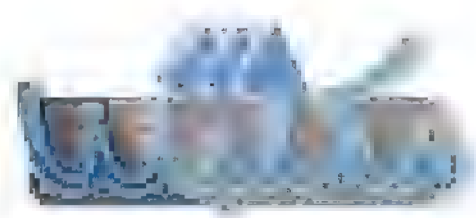
وأن يكون هو أول من يحمل حظه من الخصاصة والضعف . .
 ذات يوم يتلقى من أحد ولاته هدية من الحلوى ، ولا تكاد توضع
 بين يديه حتى يسأل الرسول الذي جاء يحملها :
 - ما هذا . . ؟

قال : حلوى يصنعها أهل أذربيجان ، وقد أرسلني بها إليك عتبة
 ابن فرقد ، وكان والياً على أذربيجان - فذاقها « عمر » ، فوجد لها
 مذاقاً شبيهاً . .
 فعاد يسأل الرسول :

- أكل المسلمين هناك يطعمون هذا . . . ؟
 قال الرجل : لا . . وإنما هو طعام الخاصة . .
 فأعاد « عمر » إغلاق الوعاء جيداً ، وقال للرجل :
 - أين بعيرك . . ؟ خذ حملك هذا ، وارجع به لعبتة ، وقل له :
 « عمر » يقول لك . اتق الله ، وأشيع المسلمين مما تشيع منه . . ! !
 هذا حاكم لا نلقاه في مكان الصدارة ، ولا في مقدمة المركب إلا
 حين تكون المخاطر داهية . . أما دون هذا ، فقد اختار مكانه دوماً هناك . .
 آخر مقعد . . في آخر صف . . ليحرس القافلة ، وليؤكد إذا كان ثمت
 نعمة مقبلة ، أنها لم تبلغه إلا بعد أن تكون قد مرت بالناس جميعاً . . ! ! !

• • •

فإذا جئنا موقفه من أهله وأسرته ، وجدنا تقديساً للمسئولية لا يُضاهيه
 تقديس ، وإكباراً لأمانة الحكم . لا يضاهيه إكبار . .
 إنه لا يحرمهم مما ليس لهم بحق فحسب ، بل مما هو لهم حق مشروع .



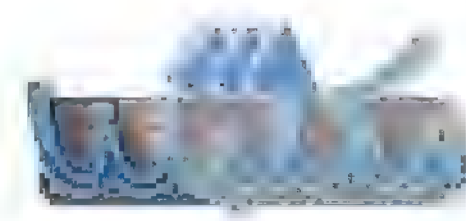
وإنه ليحملهم من المسؤوليات أضعاف ما يحمله نظراؤهم من الناس ؛
حتى صارت قرابة « عمر » عيشاً يود الأقرباء لو استطاعوا منه الفرار . . . !
إن أمير المؤمنين يعلم أن أمانة الحكم لا تُمتحن امتحانها الوثيق إلا هنا . .
في علاقات الحاكم بأهله ، هل لهم قانون ، وللناس قانون ؟ أم أنهم والناس
سواسية أمام قانون واحد ، وعدالة واحدة ؟ ؟

من أجل هذا بالغ في إلزامهم جميعاً مسؤولية القدوة
ولطالما حملهم على شطف العيش ، ولأواء الحياة . . لطالما انتزع من
أيديهم ، بل من أفواههم اللقمة الطرية . . !
ولقد كانت الأرض تميد ، والسماء تمور ، حين يعلم أن أحداً من أسرته
ذهب بامتياز - أي امتياز . . !

وكان إذا سنَّ قانوناً ، أو حظر أمراً ، جمع أهله أولاً . وقال لهم :
- « إني قد نهيت الناس عن كذا ، وكذا . وإن الناس ينظرون إليكم
كما ينظر الطير إلى اللحم ، فإن وقَعتم وقَعوا . وإن هَبْتُمْ هابوا . وإني والله
لا أوتي برجل منكم وقع فيما نهيت الناس عنه إلا ضاعفت له العذاب لمكانه
مني . . فمن شاء منكم فليتقدم ، ومن شاء فليتأخر » ! !
أرايتم . . ؟ ؟

« ضاعفتُ له العذاب لمكانه مني » . .

إن القرى من عمر ، لاتعني أن العدل في إجازة . . ولاتعني أن
القانون لغير . . بل تعني أضعافاً مضاعفة من التبعة والمسئولية والحرمان . .
تعني البعد من كل شبهة . والتخلي عن كل منعة . تعني أن يتقدم هؤلاء
الأقرباء عند الخطر ، ويتأخرون عند المغم ، بل هي كذلك تعني عند
« عمر » حرمانهم من حق مكتسب ، تفادياً لشبهة محتملة . . ! !



ولو رأيناه وهو يعاتب ولده « عبدالله بن عمر » لرأينا عجبا . . .
 مع أن عبدالله رضى الله عنه كان إماماً في الورع والزهد والتقوى . . .
 كان يتبع خطى أبيه ، ولم تكن نفسه لتزين له شبهة من سوء ؛
 ومع هذا ، فما كاده عمر « يراه يسروح نعمة متواضعة من نعم الحياة
 الدنيا ، إلا قال له :

- « ألأنك ابن أمير المؤمنين ؟ ! »
 وكانت هذه العبارة : « ألأنك ابن أمير المؤمنين » تمثل الشعار الحى
 الذى رفعه « عمر » لأهله خاصة ، وللناس كافة تجاه الحق والمعدلة .
 يدخل يوماً دار ابنه عبد الله . فيجده يأكل شرائح لحم ، فيغضب
 ويقول له :

- « ألأنك ابن أمير المؤمنين تأكل لحماً ، والناس فى خصاصة . . ؟
 ألا خبزاً وملحاً . ؟ ألا خبزاً وزيتاً . . ؟ ! ! »
 ويخرج إلى السوق يوماً فى جولة تفتيشية ، فىرى إبلأ سماناً ، تمتاز عن
 بقية الإبل بنموها وامتلائها ، فيسأل :

- إبلُ من هذه . . ؟ ؟

قالوا : إبل عبد الله بن عمر . .

وانتفض أمير المؤمنين ؟ كأنما القيامة قامت ، وقال :

- عبد الله بن عمر . . ؟ ؟ بخ بخ يا ابن أمير المؤمنين ! !

وأرسل فى طلبه من فوره ، وأقبل عبد الله يسمى . . وحين وقف بين يدى
 والده ، أخذ « عمر » يفتل سبلة شاربه - وتلك كانت عادته إذا أهّمه أمر
 خطير - وقال لابنه :

- ما هذه الإبل يا عبد الله . ؟ ؟



فأجاب : إنها إبل أنصاء - أى هزيلة - اشتريتها بمالى ، وبعثت بها إلى الحمى - أى المرمى - أتاخر فيها ، وأبتغى ما يبتغى المسلمون . . .
 فعقب « عمر » فى تهكم لاذع :
 - ويقول الناس حين يرونها . . . ارجعوا إبل ابن أمير المؤمنين . . . اسقوا إبل ابن أمير المؤمنين . . . وهكذا تسمن إبلك ، ويربو ربحك يا ابن أمير المؤمنين » . . . !!
 ثم صاح به :

- [يا عبد الله بن عمر ، خذ رأس مالك الذى دفعته فى هذه الإبل ، واجعل الربح فى بيت مال المسلمين] . . .
 يا خالق هذا الإنسان ، سبحانك . . . !!
 إن « عبد الله بن عمر » لم يأت أمراً نكراً ، إنما يستثمر ماله الحلال فى تجارة حلال ، وهو بدينه القوى وأخلاقه الأمانة فوق كل شبهة .
 ولكن لأنه ابن أمير المؤمنين ، يحرمه أمير المؤمنين ، مما هو له حق - مظنة أن تكون بُنوته لعمر ، قد هيأت له من الفرص مالا يتوافر لغيره من الناس . . . !!

هذا حاكم يمسك الميزان فى رهة لا تماثلها رهة ، وهو لا يدرأ أهله عن أن يكونوا أهل حظوظ ومزايا فحسب . . . بل إنه ليضطربهم إلى أن يعيشوا معه فوق صراط أحد من الشفرة . . . وأرق من الشعرة ، حتى لكأنما رزقوا بقرابة « عمر » ، بدل أن يهنأوا بها ويتبذخوا فيها . . . !

يصل إلى المدينة يوماً بعض أموال الأقاليم ، فتذهب إليه ابنته « حفصة » رضى الله عنها ، لتأخذ نصيبها . وتقول له مداعبة :



- « يا أمير المؤمنين ، حق أقاربك في هذا المال ، فقد أوصى الله
بالأقربين » . . .

فيحبها جداً :

- « يا بُنية ، حق أقربائي في مالي . . أما هذا ، فمال المسلمين . .
قومي إلى بيتك » . . ! !

هذا رجل تأدب على يد « محمد » رسول الله عليه الصلاة والسلام . .
ولطالما رآه يقول لأحب الناس إليه ، ابنته « فاطمة البتول » « لا يا فاطمة . .
إن في المسلمين من هم أحوج منك لهذا المال » . . .

ثم يخرمها ويعطى سواها ! !

من هذا المنهل ارتوى « عمر » ، وعلى هذا الهدى سار . . .
وهو يطالب أهله وذويه أن يرتفعوا دوماً إلى مستوى المسؤولية لا الحظوة .
فليس لدى « عمر » حظوة لإنسان . . .

هو يريد منهم أن يكونوا عوناً له على واجبه ، وذلك يقتضيهم أن يبذلوا
جهداً أكثر ، ويحرزوا تفوقاً أكبر . . .

يقتضيهم أن يعطوا كثيراً ، ويأخذوا قليلاً ، وينتظروا من الله حُسن
الثواب . . .

أجل . . . يقتضيهم أن يكونوا قدوة لأهل العفاف والكفاف .
حين أفاء الله على المسلمين في عهده خيراً كثيراً ، وامتلاً بيت المال
بالمال ، أشار عليه نفر من صحبه ، أن يقوم بإحصاء الناس ، ورصد
أسمائهم في ديوان ، حتى ينالوا جميعاً رواتبهم السنوية في نظام محكم . . .

واختير لهذه المهمة - عتيل بن أبي طالب - وجير بن مطعم ، ومخرمة
ابن نوفل - وكانوا أعلم الناس بأنساب قريش ، وأكثرهم معرفة بالمسلمين .



جلسوا يدنون الأسماء ، بادئين ببني هاشم ، ثم بآل أبي بكر ثم ببني عدي آل عمر . . .

فلما طالع أمير المؤمنين الكتاب رده إليهم وأمرهم أن يقدموا على آل عمر كثيرين غيرهم اقترح أسماءهم ، وذكر عائلاتهم . . وقال : « ضعوا عمر وقومه موضعهم » . . ! !

وعلم « بنو عدي » بهذا ، فذهبوا إليه راجين أن تظل أسماؤهم في مقدمة الديوان كي ينالوا أنصباؤهم والمال وفر ، وقالوا له : ألسنا أهل أمير المؤمنين . . ؟ فأجابهم عمر :

- « بخ بخ بني عدي ، أردتم الأكل على ظهري ، وأن أهب حسناي لكم ، لا والله لنأخذن مكانكم ولوجتم آخر الناس » . .

إن القرابة من أمير المؤمنين ، لا تعني كما أسلفنا الأثرة والحظوة إنما تعني العرق والشظف . .

ولقد رفض أمير المؤمنين إلحاح أصحابه وإخوانه لكي يولي ابنه عبد الله منصباً من مناصب الدولة . .

ولقد كانوا في إلحاحهم مدفوعين بحرصهم الشديد على الانتفاع بمواهب النادرة . .

ولكن « عمر » رفض كما رفض عند موته أن يرشحه للخلافة . . بل رفض أن يجعله ضمن الستة الذين رشحهم هو ليختاروا من بينهم خليفة قائلاً : « حسب آل عمر أن يحاسب منهم واحد ، هو عمر » . . ! !

لكن يا أمير المؤمنين ، إن ولدك عبد الله هو التقى العادل ، فهل ذنبه ، وذنوب الناس الذين تستعدهم ولايته أنه ابن أمير المؤمنين . . ؟ !

طالما قيل هذا القول لعمر . . فيذكر قائله بأن عبد الله ليس هو التقى



العادل وحده . . . وهناك في المسلمين نُفُراء به في السر والتقوى ، فإذا أثره

« عمر » عليهم يكون قد حائى وجامل . . . !

ثم إن « عمر » رجل « قدوة » ، قبل أن يكون رجل « حكم » ؛ فإذا استعمل اليوم صالحى أهله . فأَيَّان يذهب إذا جاء من بعده حكام يُسرفون في تولية أهلهم . ويقولون : لقد فعل هذا « عمر » . . . ؟ !

من أجل ذلك وضع مبدأ جليلاً فقال :

- « من استعمل رجلاً لمودة أو قرابة ، لا يحمله على استعماله إلا ذلك .

فقد خان الله ورسوله والمؤمنين » .

إنه إذا وليَّ عبد الله ابنه عملاً ، لن يفعل ، لمكان عبد الله منه ؛ بل لمحض استحقاقه وكفايته . ومع هذا يصر على موقفه . . .

جلس يوماً بين أصحابه وقال :

- « أعيانى أهل الكوفة . . . إن استعملت عليهم كَيْناً استضعفوه وإن وليتهم القوى شكَّوه ، ولو دِدْتُ أُنَى وجدت قوياً أميناً مسلماً ، أستعمله عليهم » .

فقال أحد جلسائه : أنا والله أدلك على القوى الأمين المسلم . . .

قال عمر متحفظاً : من هو . . . ؟

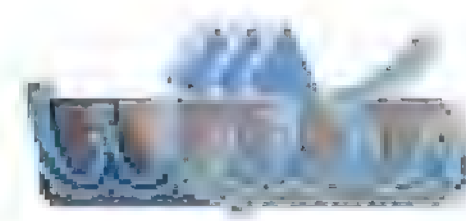
قال الرجل : عبد الله بن عمر .

فأجاب أمير المؤمنين قائلاً : قاتلك الله . والله ما أردتَ الله بهذا . . .

ثم اختار والياً آخر . . . ! !

• • •

لقد اعتدنا أن نضع هذا السلوك المعجز لعمر . تحت عنوان الزهد



أو التقشف . . .

فعمر يجوع . ويتقشف في مطعمه ، وملبسه ، ويحمل أهله معه على ذلك بدافع ، نسميه زهداً . . .

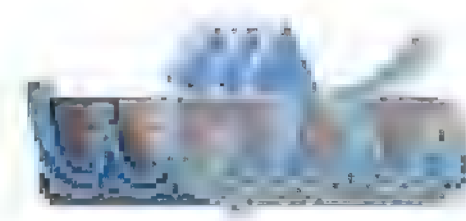
ولكن الحق . أن وراء الزهد ، حافزاً أبعد غوراً وأعمق جذوراً .
ذلك هو الاحترام الفريد لمسئوليته ، والتفاني الفذ في الإخلاص لتبعاته وواجبه .

إن المسؤولية في ضميره الطاهر الحي . قداسة مطلقة ، وجميع الاعتبارات والمواقف . تكيف وفق مقتضيات هذه المسؤولية ، ولا تخضع هي لأي موقف أو اعتبار .

ولعل من حظوظنا الثابتة أن نطالع هذه الخطبة القيمة التي استهل بها عهد خلافته :

« . . . بلغني أن الناس هابوا شدتي ، وخافوا غلظتي ، وقالوا : قد كان عمر يشتد ورسول الله بين أظهرنا ، ثم اشتد علينا ، وأبو بكر وألينا دونه ، فكيف وقد صارت الأمور إليه . . ؟ »

« ألا من قال هذا فقد صدق ، فإنني كنت مع رسول الله عوناً وخادماً . . . وكان عليه السلام من لا يبلغ أحد صفته من اللين والرحمة ، وكان كما قال الله تعالى [بالمؤمنين رءوفٌ رحيمٌ] فكنت بين يديه سيفاً مسلولاً حتى يغمدني ، أو يدعني فأمضي . . فلم أزل مع رسول الله صلى الله عليه وسلم على ذلك حتى توفاه الله وهو عني راض . والحمد لله على ذلك كثيراً . وأنا به أسعد . . . »
ثم ولي أمر المسلمين أبو بكر ، فكان من لا تنكرون دعته ، وكرمه ، وليته ، فكنت خادماً وعونه . أخلط شدتي بليته فأكون سيفاً مسلولاً حتى يغمدني فأمضي . فلم أزل معه كذلك حتى قبضه الله عز وجل وهو عني



راض ، والحمد لله على ذلك كثيراً . وأنا به أسعد . .
 « ثم إني قد وليت أموركم أيها الناس ، فاعلموا أن تلك الشدة قد
 أضعفت ، ولكنها إنما تكون على أهل الظلم والتعدي ، فأما أهل السلامة
 والدين والقصد فأنا ألين لهم من بعضهم لبعض . ولست أدع أحداً يظلم
 أحداً . أو يعتدي عليه حتى أضع خبده على الأرض ، حتى يُدعن للحق ،
 وإني بعد شدتي تلك ، أضع خدي على الأرض لأهل العفاف . وأهل
 الكفاف . .

« ولكم على أيها الناس خصال أذكرها لكم فخذوني بها :
 لكم على ألا أجتبي شيئاً من خراجكم وما أفاء الله عليكم إلا من وجهه ،
 ولكم على إذا وقع في يدي ، ألا يخرج مني إلا في حقه . ولكم على أن
 أزيد عطاياكم وأرزاقكم إن شاء الله تعالى ، وأسد ثغوركم . ولكم على
 ألا ألقىكم في المهالك . وإذا غبتم في البعوث فأنا أبو العيال حتى ترجعوا
 إليهم . . .

« فاتقوا الله وأعينوني على أنفسكم بكنها عني ، وأعينوني على نفسي
 بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وإحضاري النصيحة فيما ولاني الله من
 أمركم . . » !!

» « «

هذه الخطبة ، ليست أجمع خطب « عمر » . ولا أكثرها ألفاً ونوراً ولكنها
 في هذا المقام تلقى ضياء غامراً على الحافظ العميق الذي كان يحرك الرجل
 الكبير ويهدي خطاه . .
 فلقد كان رسول الله حي ، سيفاً مسلولا على كل ما هو زيف وباطل .



يضرب به الرسول ما يشاء ..

وكان وأبو بكر حي ، السيف المسلول نفسه في يد خليفة رسول الله ..
أى أنه كان جندياً ، قد يناقش قائده ، ولكنه آخر الأمر السميع المطيع ..
أما اليوم ، فقد صار السيف والضارب معاً .. الجندي ، والقائد جميعاً ..
ومسئولته عن كل شيء مسئوليّة مباشرة ..

وهو لا يعد نفسه مسئولاً أمام الناس ، ولا أمام التاريخ . ولا أمام شيء
من هذه المصطلحات . بل هو مسئول أمام الحق المين - الله الذى لا تخفى
عليه خافية .. !!

أجل - أمام الله العلى الكبير يحمل « عمر » المسئولية التى كان يحملها
صاحباه - رسول الله ، وخليفته أبو بكر ..

• • •

وإذا كنا رأينا كيف تفوّق بمسئوليّاته على كل خوالج النفس ، ورغبات
الأهل ..

فلننظر الآن كيف باشر مسئوليّته تجاه الناس الذين استخلفه الله
عليهم .

وهنا نلتقى مثلما التقينا من قبل ، وكما ستلتقى من بعد بالرجل الذى هو
نسيجٌ وحده ..

إنه يرى مسئوليّته مباشرة عن كل رجل في سربه .. عن كل امرأة
في بيتها .. عن كل رضيع في مهده .. !!

وهو يبدأ مسئوليّته تجاه الناس ، بأن يعيش في أدنى مستويات عيشهم .
فإذا دُسَّت عليه لقمة متميزة قال كما قرأنا من قبل : « بشس الوالى إن



أنا طعمت طيبها ، وتركت للناس عظامها . !
وأعجب من كل عجب ، أنه لم يسلك سلوكه هذا تجاه الأحياء وحدهم ،
بل تجاه الأموات أيضاً . . ! !

فكان يرفض أن يظفر بنعم لم يظفر به إخوانه الذين سبقوه إلى الله ،
واستشهدوا في سبيله قبل أن يمكن للإسلام والمسلمين . .
حين زار الشام ، جىء له بطعام طيب ، مختلف ألوانه ، وبدلاً من أن
يقبل عليه ، وينعم بمذاقه ، رمقه بعينين باكيتين وقال :
- « كُلُّ هذا لنا ، وقد مات إخواننا فقراء لا يشبعون من خبز

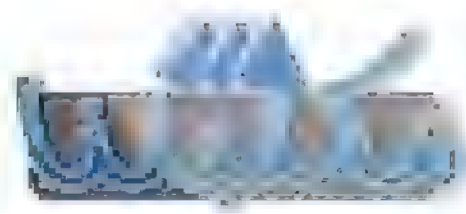
الشعير » ؟ ؟ ! !

وهو يأخذ بمكاظم الجبارين العتاة حتى يخضعوا للحق . ويوطئوا الأكناف
لإخوانهم الذين يتميزون عليهم .
وفي الوقت نفسه يضع خده هو على الأرض - كما سمعناه يخطب من
قبل - لأهل العفاف وأهل الكفاف . .
وهو يحمل مسئولياته فوق كاهله . . ، ولا يوزعها على الآخرين الذين
هم بمسئولياتهم مشغولون . .

فإذا تقدم منه أحد أصحابه ليربحه من عمل ، أو يشاركه فيه ، نهره
قائلاً : « أتحمل وزري يوم القيامة » . . ؟ ! .

وحين نبصر الجوّ النفسى المشحون بالاهتمام والحركة عندما تنادى
« عمر » إحدى مسئولياته ، نرى عالماً بموج ويتحرك ، وليس فرداً
مجرد فرد . .

والحدث العابر الذى لا يكاد يحسه أكثر الناس بقظة وتحفزاً
وإنسانية . . كان « عمر » يرتجف منه ، ويحتشد له ، ويقيس عليه الأشباه



والنظائر ثم يضع تشريعاً ، ويسن قانوناً . . .

قدم المدينة بعض التجار في إحدى الأمسيات ، وخبموا عند مشارفها ، فاصطحب أمير المؤمنين عبد الرحمن بن عوف ليتفقد أمر القافلة ، وكان الليل قد تصرَّم ، واقترب الهزيع الأخير منه . . . وعند القافلة النائمة اتخذ « عمر » وصاحبه مجلساً على مقربة منها ، وقال « عمر » لعبد الرحمن : فلنمض بقية الليل هنا ، نحرس ضيوفنا . . .

وإذ هما جالسان ، سمع صوت بكاء صبي ، فانتبه « عمر » وصمت . . . وانتظر أن يكفَّ الصبي عن بكائه ، ولكنه تمادى فيه ، فمضى يسرع صوبه ، وحين اقترب منه وسمع أمه تُنهيهِ ، قال لها : اتق الله ، وأحسني إلى صبيك . . . ! !

ثم عاد إلى مكانه . . . وبعد حين عاود الصبي البكاء فهرول نحوه « عمر » ، ونادى أمه : قلت لك ، اتق الله أحسنني إلى صبيك . . .

وعاد إلى مجلسه . بيد أنه لم يكد يستقر حتى زلَّه مرة أخرى بكاء الصبي فذهب إلى أمه وقال لها : ويحك . . . إني لأراك أمَّ سوء . ما لصبيك لا يقر له قرار . . . ؟ !

قالت ، وهي لا تعرف من تخاطب : يا عبد الله قد أضجرتني . . .

إني أحمله على الفِطام فيأني . . .

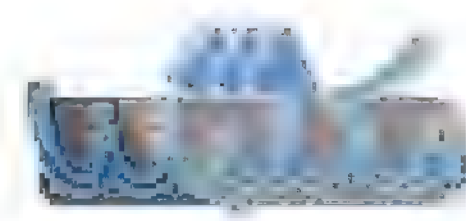
سألها عمر : ولم تحمليه على الفِطام . . . ؟

قالت : لأن عمر لا يفرض إلا للفظيم . . .

قال وأنفاسه تتوالب : وكم له من العمر . . . ؟

قالت : بضعة أشهر . . .

قال : ويحك . . . لا تُعجلية . . .



يقول صاحبه عبد الرحمن بن عوف : فصلى بنا الفجر يومئذ ، وما يستبين
الناس قراءته من غلبة البكاء . فلما سلم قال : « يا بؤساً لعمر ! ! كم قتل
من أولاد المسلمين » . . ؟ ! !

ثم أمر منادياً ينادى في المدينة : « لا تعجلوا صبيانكم عن الفطام ،
فإننا نفرض من بيت المال لكل مولود في الإسلام » . .
ثم كتب بهذا إلى جميع ولاته في الأمطار .

* * *

أمير المؤمنين ، تدك جيوشه معاقل كسرى وقیصر . وهو هنا في الساعات
الأنخيرة من الليل يحرس قافلة وفدت على المدينة . . ثم يورقه بكاء طفل
ويزلزله ، حتى يشرق بالدموع وهو يصلى بالناس ، ثم لا يعالج واقعة الحال
هذه وحدها ، بل يضع في التور واللحظة قانوناً يستوعب كل حالاتها
المشابهة . .

اهتمام عجيب بمشاكل الناس . وممارسة فذة بخارقة لمسئولية الحكم . . !
وفي عام الرمادة يسمع عن جماعة في أقصى المدينة ، قد نزل بهم من
الضر أكثر مما نزل بأهل المدينة كلها . . فيحمل فوق ظهره جرابين من
دقيق ، ويحمل خادمه « أسلم » قرية مملوءة زيتاً ، ثم يهرولان إلى هناك
يحملان النجدة والغوث .

وعندما يبلغان القوم ، يطرح أمير المؤمنين بردائه ويظهر بنفسه
طعامهم حتى يشبعوا . . ثم يرسل خادمه ليعود إليه بإبل يحملهم على ظهورها
إلى داخل المدينة حتى يكونوا بقرب منه ، وحتى ينزلوا مكاناً أطيب ، ويتألفوا
رعاية أكثر . .



الناس .. الناس .. الناس ! ! !

هذه الكلمة كانت الهتاف العلوى الذى يجلجل فى روع عمر آناء الليل
وأطراف النهار .

حتى لَنراه وهو يجود بأنفاسه الطاهرة ، وجراحه النبيلة الشهيدة تُشخبُ
دماً ، لا يشغله إلا أمر الناس ..

فيدعو بالسة الذين اختارهم . ليختاروا من بينهم الخليفة الجديد وإذا
يحضر منهم على ، وعثمان ، وسعد ، يوصيهم وهو لا يقوى على الكلام
فيقول :

- « يا على .. إذا وليت من أمور الناس شيئاً ، فأعنيك بالله أن تحمل
بنى هاشم على رقاب الناس .. ! »

- « يا عثمان .. إذا وليت من أمور الناس شيئاً ، فأعنيك بالله أن تحمل
بنى أبي مُعيط على رقاب الناس .. ! »

- « يا سعد .. إذا وليت من أمور الناس شيئاً ، فأعنيك بالله أن تحمل
أقاربك على رقاب الناس .. ! »

وفى العام الذى لقي الله فيه ، كان على موعد مع نفسه أن يطوف بجميع
الأمصار ليتفقد أحوال الناس ويبلو أخبارهم . ولقد قال يوماً لأصحابه :

« لئن عشت إن شاء الله ، لأسيرن فى الرعية حوَّلاً ، فأنى أعلم أن للناس
حوائج تقطع دونى .. أمّا ولائهم فلا يرفعونها إلى . وأمّا هم فلا يصلون إلى ..
أسير إلى الشام فأقيم شهرين ، وبالجزيرة شهرين ، وبمصر شهرين ،
وبالبحرين شهرين ، وبالكوفة شهرين ، وبالبصرة شهرين .. والله كنعم
الحول هذا .. ! ! !

وتنقلنا مسئولية «عمر» ع  وليته عن الولاية والعمال الذين
كان يَكِل إليهم مصائر الناس في البلاد البعيدة والقرية ..
فكيف كان «عمر» يباشر مسئوليته تجاه ولايته ومعاونيه في الحكم ؟؟
كان يباشرها على طريقته .. طريقته التي لا تتغير ، والتي لا نرى
في نماذجها مهما تتكاثر أدنى تفاوت ..

وكان يختارهم في حرص من يختار مصيره .. !!
إنه يعد نفسه مسئولاً عن كل غلطة يرتكبها أحد ولايته ، علم بها عمر
أم لم يعلم ..

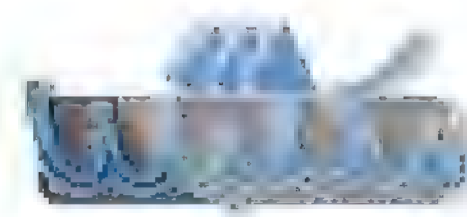
ومن ثم ، فهو يقلب وجهه ، ويعمل فكره ، ويستخير ربه ، ويستشير
صحبه ، ويستأني ثم يستأني قبل أن يختار عامله ومعاونيه .. !!
كان يقول لأصحابه :

- «أرايتم إذا استعملت عليكم خيراً من أعلم ، ثم أمرته بالعدل
أبى ذلك ذمتي» .. ؟؟
يقول أصحابه : نعم ..

فيقول : «كلا .. حتى أنظر في عمله ، أعجل بما أمرته أم لا» .
ويقول : «أبما عامل لي ظلم أحداً ، وبلغتني مظلمته فلم أغيرها .
فأنا ظلمته» .. !!

ويقول لخالد بن عرفة :

- «إن نصيحتي لك وأنت عندي جالس ، كنتصيحني لمن هو بأقصى
ثغر من ثغور المسلمين ، وذلك لِمَا طَوَّقَنِي الله من أمرهم ، فإن رسول الله
صلى الله عليه وسلم قال : «من مات غاشاً لرعيته لم يرح رائحة الجنة» .. !!
إن «عمر» يريد من ولايته أن يباشروا مسئولياتهم على المستوى نفسه



الذى يباشر فيه مسئولياته . .

وإذا كان ذلك عسيراً . . بل مستحيلاً ، لأن « عمر » لا يتكرر ، فقد كان يبحث عن أقرب الناس مسافة من هذا المستوى . . وهو لهذا ، يختارهم مُعناً في التحوط والدقة واليقظة . . فهو - أولاً - يرفض كل من يسعى إلى المنصب أو يطلبه لنفسه . وإنه في هذا لمقتدر برسول الله عليه الصلاة والسلام ، إذ كان يقول : « إنا والله لا نُؤَلِّي هذا الأمر أحداً يسأله أو يحرص عليه » .

هذه أولى خطوات « عمر » في اختيار معاونيه . . استبعاد كل راغب في المنصب ، طامح إليه ، لأن الذى يحمل شهوة الحكم يحمل شهوة التحكم . . والمدين يطلبون أن يكونوا حكاماً وولاء ، لا يقدرون مسئولية الحكم تماماً ، وإلا لهربوا منه ، وزهدوا فيه . . ذات يوم أسرَّ في نفسه اختيار أحد أصحابه ليجمعه والياً على أحد الأقاليم .

ولو صبر هذا الصحابي بضع ساعات ، لا استدعاه « عمر » ليقلده المنصب الذى رشحه له .

ولكن أخانا بادرَ الأمور التى لم يكن يعرف عنها شيئاً ، وذهب إلى أمير المؤمنين يسأله أن يوليه إمارة . .

ويبتسم « عمر » لحكمة المقادير ، ويفكر قليلاً ثم يقول لصاحبه : - « قد كنا أردناك لذلك ، ولكن من يطلب هذا الأمر لا يُعان عليه

ولا يُجاب إليه » . . ثم صرفه وولى غيره . . ! !

سنقول لأنفسنا . وأى بأس في أن يطلب رجل لنفسه الحق في عمل

يثق من قدرته على مسئوليته ، وحفظ أمانته ؟ ؟



ألم يقل يوسف الصديق للملك : « اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ » ، إِيَّيْ حَقِيقَةً عَلِيمٌ » ؟ ؟

أجل ، قال يوسف الصديق هذا ، بيد أنه حين تقدم طالباً ذلك المنصب ، كان تماماً كفدائي يخاطر بحياته . . . كان كجندى الإطفاء يُلْقَى بنفسه في أفواه اللهب ، وهو لا يدري : أيعود مُعافى ، أم يتحول هناك إلى رماد . . ؟ !

صحيح أنه طالب بمنصب رفيع ، بيد أن هذا المنصب ساعتهذ كان غُرماً لا غنماً ، وكانت مخاطره المحققة ، تفوق كثيراً مَبَاهِجَهِ المحتملة . . . كان هناك إفلاس ، ومجاعة ، وخراب ، وكل المسؤولين يهربون مما جَنَتْ أيديهم ، ثم يتقدم رجل لينقذ أزمة تستعصى على الإنقاذ .

هذا ليس طالب منصب ، بل عاشق الخطر ، وراكب الصعب . . ! ! على أن « عمر » ، لم يكن بحاجة إلى أن يفلسف المسألة على هذا النسق . . فالأمر لديه في غاية الوضوح . . إنه يريد والياً يرتفع إلى مستوى المسؤولية كما يفهمها عمر . وأى واحد من هذا الطراز ، سيهرب من الولاية بدل أن يحرص عليها أو يطلبها .

لقد هرب « عمر » مما هو أكثر من الولاية . . هرب من الخلافة إثر وفاة رسول الله . . ولولا أن طَوَّقَهُ بها « أبو بكر » في لحظة لا تسمح بالتردد ، بل ولا بالتفكير ، هرب منها أيضاً ولآثر كما قال : « أن يُضْرَبَ عنقه ولا يرى نفسه أميراً للمؤمنين » . . ! !

إن كل من يطلب الإمارة إذن ، يكون سبيُّ التقدير لتبعاتها ، وعُقْبَاهَا ، ومن ثم لا يراه « عمر » جديراً بها . .

هذا أول ما يتطلبه من ولاته . الزهد في المنصب ، والفرار منه ، حتى



إذا جاءهم كرها ، أخذوه مشفقين . . . ! !
بعد هذا ، يختار لها « القوى الأمين » . . .
ولا يكاد يختار الوالى حتى يأخذ بيده ويقول له :
- « إني لم أستعملك على دماء المسلمين ، ولا على أعراضهم . ولكنى
استعملتك لتقيم فيهم الصلاة ، وتقسيم بينهم ، وتحكم فيهم بالعدل » .
ثم يعد له عدداً ، النواهي التي عليه أن يتجنبها :
• لا تركب دابة مُطَهَّمة . .
• لا تلبس ثوباً رقيقاً . .
• لا تأكل طعاماً رافهاً . .
• لا تغلق بابك دون حوائج الناس . .
ولكن ، لماذا يحول « عمر » بين عماله ، وهذه الطيبات المباحة - الدابة
المطهمة . . والثوب الرقيق . . واللقمة الطرية . . ؟ !
إنه يفعل ليعيشوا دائماً في مستوى الشعب الكادح الفقير . . وليظلوا
في مكانهم الحق ، خداماً للناس ، لا سادة لهم . .
إنه لا يريد لولائِهِ أن يُفْتَنُوا ، أو يترفوا ، أو ينالوا باسم الحكم أى
بُلَهْنَةٍ ، أو امتياز .
من أجل هذا ، يتعقبهم في كل مظاهر الزينة . والعلو ، فينودهم عنها حتى
لو يكون هذا المظهر دابة الركوب . .
يجب أن تكون هذه الدابة للعمل ، لا للخيلاء . . للخدمة لا للزهو . .
للضرورة ، لا للصلف ولا للترف . . ! !
إنه لا يريد لولائِهِ أن يفقدوا وجاهتهم . . ولكنه يريد لهم الواجهة
المشروعة التي لا بنى فيها ولا غرور . .



يريد أن يتفوقوا على الناس بأناقة النفس ، لا بأناقة اللباس ، وبمحامد
الأفعال ، لا بالمظاهر الكاذبة ، والغبار الباطل . . . ! ! !
انظروا كيف يرسم في حديق باهر ، صورة الأمير الذي يُحِب ،
والحاكم الذي يُؤثّر . . .

ذات يوم قال لإخوانه : . . . « دُلُونِي عَلَى رَجُلٍ أَكَلُ إِلَيْهِ أَمْرًا يَهْنِي . . .
قالوا : فلان . قال : لا حاجة لنا فيه . . قالوا : فمن تريد ؟
قال : « أريد رجلاً إذا كان في القوم وليس أميراً لهم ، بدا ، وكأنه
أميرهم . . وإذا كان فيهم وهو أميرهم . بدا ، وكأنه واحد منهم » . . . ! !
يَا لِبَهَاءِ عَقْلِكَ ، وَذَكَاءِ رَوْحِكَ . . ! !

انظروا . .

هذا ما يريده « عمر » تماماً - أمراء في أخلاقهم وتواضعهم . وليس
في تبذخهم وعلوهم . .

أمراء ، لا يفسح الناس لهم الطريق ، ولا يتخطّون الرقاب . بل يمشون على
الأرض هَوْنًا ، ويعيشون قانعين . .

أمراء ، يشاركون الناس ولا يتميزون عليهم بغير العمل الصالح والجهد
المبذول . .

ولقد تعلّم هذا من خير المعلمين ، من رسول الله محمد عليه الصلاة
والسلام .

فما كان الرسول يرى أصحابه في عمل إلا شاركهم ، آخذاً أكثر جوانب
العمل مشقة . .

يجمع يوماً الحطب لأصحابه وهم سَفَرٌ ، فإذا قالوا : نحن نكفك
ذلك يا رسول الله ، قال لهم : « إني أكره أن أتميّز عليكم » . .



ويسمع بعض أصحابه يقولون له : « أنت سيدنا ، وابن سيدنا ،
 فيهاهم قائلاً : « لا يستغوينكم الشيطان » ..
 ويقدم على أصحابه ، فيقفون له ، فيهاهم قائلاً : « لا تقوموا كما يقوم
 الأعاجم ، يعظم بعضهم بعضاً » .. ! !

ولا تقف مسئولية « عمر » عن ولايته عند حسن اختيارهم ، وحسن
 توجيههم . بل تنهض إلى إقامة كل الضمانات التي تجعل ولايتهم على الناس
 رحمة ، ورخاء ، وأمانا ..

وسبيله لهذا ، أن يجعل الحاكم تحت رقابة المحكوم .. وأن يحقق بنفسه
 وعلى الفور كل شكوى يشكوها مواطن من حاكم ، وأن يتبع في بقطة عارمة
 سلوك ولايته في كل الأمصار .. ! !

في موسم الحج ، وعلى ملا من الأعداد الهائلة من حجاج المسلمين
 القادمين من كل بلد ، جمع عماله وولايته جميعاً ، ووقف خطيباً :

- « أيها الناس ، إني والله لا أبعث عمالي إليكم ، ليضربوا أبشاركم ،
 ولا ليأخذوا أموالكم ، ولكن أبعثهم إليكم ليعلموكم دينكم وسنة نبيكم ،
 فمن فعل به سوى ذلك ، فليرفعه إلى . فر الذي نفسي بيده لأمكنه من
 القصاص » .. ! !

ويقف « عمرو بن العاص » ، الذي رأى في هذا الحض خطر على
 هبة الولاة والحاكمين . فيقول : « أرايت إن كان رجل من المسلمين والياً
 على رعية فأدب بعضهم ، أنقص منه » .. ؟ ؟

ويجيب عمر : « إي والذي نفسي بيده لأفعلن ، فقد رأيت رسول الله



صلى الله عليه وسلم يُقَصُّ من نفسه ، ويقول :
 « من كنت جلدت له ظهراً فهذا ظهري فليقتد منه » . . . !
 و « عمر » يعنى دائماً ما يقول ، فما كانت تبلغه شبهة عن وال حتى
 يتوافر عليها فى يقظة وحزم .

يسأل وقدأ زاره من أهل حمص عن واليهم « عبد الله بن قُوط » فيقولون :
 خير أمير يا أمير المؤمنين ، لولا أنه قد بنى لنفسه داراً فارهة . .
 ويُهمهم عمر : داراً فارهة . . ؟ يتشامخُ بها على الناس ؟ بنخ بنخ
 لابن قوط . .

ثم يوفد إليه رسولا ، ويقول له : ابدأ بالدار فأحرق بابها . . . ثم ائت
 به إلى .

ويسافر الرسول إلى حمص ، ويعود بواليتها فيمتنع عمر عن لقائه
 ثلاثة أيام . ثم فى اليوم الرابع يستقبله ويختار للقاءه مكان « الحرّة » حيث
 تعيش إبل الصدقة وأغنامها . .

ولا يكاد الرجل يقبل ، حتى يأمره « عمر » أن يخلع حلته ، ويلبس
 مكانها لباس الرعاة ويقول له : « هذا خير مما كان يلبس أبوك . . » ثم يناوله
 عصاً ، ويقول له : « وهذه خير من العصا التى كان أبوك يهشُّ بها على
 غنمه » . . ثم يشير بيده إلى الإبل ويقول له : « اتبعها وأرعىها يا عبد الله » . . !
 ثم بعد حين ، يستدعيه ، ويقول له معاتباً :

— هل أرسلتك لتشيد وتبنى . . ؟ ! ارجع إلى عملك ولا تعد لما
 فعلت أبداً . . ! !

هذا موقفه من رجل شهد له قومه بأنه خير أمير لولا أن ميّز نفسه بدار

رافهة . . ! !



ألا ترون أننا أمام أسطورة . . بل لو كانت أسطورة لصعب تصديقها . .
ولكن لحسن حظ البشرية كلها أن « عمر » لم يكن أسطورة ؛ بل كان
حقيقة ملأت الزمان والمكان . . وكان هدى من الله للناس يقول لهم : هكذا
حاولوا أن تكونوا . .

• • •

وفي الوقت الذي تجمع الفرس وحلفائهم ، في نهاوند . . وسعد بن أبي
وقاص يتهايانا لمتنازلة جيوشهم اللجة ، تصل المدينة شكوى ضد سعد ، فيستدعيه
« عمر » فوراً ، غير منتظر قليلاً ريثما تنتهي المعركة المشككة على البدء
والاندلاع . . ذلك لأن « عمر » يرى أنه إذا كانت الشكوى صحيحة
وصادقة ، فلن يُبقى على سعد . حتى لو خسر المسلمون المعركة كلها . .
لأن النصر كما يقول « عمر » . إنما يبطئ عن كل قائد أو جيش يجترح
السيئات . . ! !

وهكذا ، وفي هذا الظرف الدقيق الحرج ، يرسل « عمر » « محمد
ابن مسلمة » إلى هناك ليفحص الشكوى فإن وجدها حقاً ، عاد بسعد
إلى المدينة . .

ويذهب « محمد بن مسلمة » ويأخذ بيد سعد الفاتح الأعظم ،
والوالى المهيب ، ويطوف به على الناس يسألم الرأي فيه . . فقوم يقولون
عنه خيراً . . وآخرون يُحصون عليه بعض مأخذهم . . وأخيراً ، يصطحبه
ابن مسلمة إلى المدينة .

وإنا لنعرف نبأه مع حاكم مصر وفاتحها ، « عمرو بن العاص »
حين وفد عليه من مصر ، فتي مكروب يقول : يا أمير المؤمنين هذا مقام



العائد بك ..

ويستوضحه النبا فيعلم منه أن « محمد بن عمرو بن العاص » قد أوجعه ضرباً ، لأنه سابقه فسبّه ، فعلا ظهره بالسوط وهو يقول : خذها ، وأنا ابن الأكرمين !! !

ويُرسل أمير المؤمنين يدعو عمرو بن العاص وابنه محمداً ولندع « أنس بن مالك » يروي لنا النبا كما شهدته ورآه :

يقول : « .. فوالله إنا لجلوسٌ عند عمر ، وإذا عمرو بن العاص يقبل في إزار ورداء ، فجعل عمر يثلف باحثاً عن ابنه محمد ، فإذا هو خلف أبيه ..

فقال : أين المصري .. ؟

قال : ها أنذا يا أمير المؤمنين ..

قال عمر : خذ الدرّة ، واضرب بها ابن الأكرمين ..

« فضربه حتى أثخنه ونحن نشئى أن يضربه ، فلم يترع حتى أحببنا أن

يترع من كثرة ما ضربه ، وعمر يقول : اضرب ابن الأكرمين !! !

ثم قال عمر للمصري : « أجلبها على صلعة عمرو ، فوالله ما ضربك

إلا بفضل سلطانه .. !! !

قال الرجل : يا أمير المؤمنين ، قد استوفيت ، واشتفيت ، وضربت

من ضربني ..

قال عمر : أما والله لو ضربته ما حلنا بينك وبينه حتى تكون أنت

الذى تدعه ..

ثم التفت إلى عمرو وقال : « يا عمرو ، متى تعبّدتم الناس وقد ولدتهم

أمهاتهم أحراراً .. ؟ !! !



والتفت إلى المصري وقال له : « انصرف راشداً ، فإن ربك ريب
فاكتب إلى ... !! »

هذا هو عمرو بن العاص ، صحابي من شيوخ الصحابة ، وحاكم
إقليم من أكبر أقاليم الفتح الإسلامي ، ولا ينجو ولده من العقوبة ، بل
وتكاد العقوبة تدرك عمرو بن العاص نفسه لولا عفو صاحب الحق ... !

• • •

على أن هذه المواقف الصارمة الحازمة التي يقفها « عمر » من ولاته
الذين قد يسيئون استعمال سلطانهم ... هذه المواقف تتحول إلى مشاهد
أخرى يذوب فيها « عمر » حناناً وغبطة حين يحقق مع أحد الولاة ، فينتهي
بريثاً ..

ذات يوم تلقى شكاةً ضد وال له ، هو « سعيد بن عامر الجُمَحِيَّ »
تتضمن ثلاثة مآخذ :

أولها : أنه لا يخرج إلى الناس حتى يتعالى النهار ..

ثانيها : أنه لا يجيب أحداً بليل ..

ثالثها : يغيب عن الناس كل شهر يوماً ، فلا يرى أحداً ولا يراه أحد ..

واستدعاه « عمر » ، وواجهه بالشَّاكِين ، وقال لهم تكلموا :

قالوا : لا يخرج إلينا حتى يرتفع النهار ..

ونظر أمير المؤمنين صوب سعيد وسأله أن يجيب ..

فقال : والله يا أمير المؤمنين . إن كنت لأكره ذكر السبب . ليس

لأهلي ننادم ، فأنا أعجن معهم عجيني ، ثم أجلس حتى يغمر ، ثم أخبز

خبزي ، ثم أتوضأ وأخرج إليهم ..



وأُشْرِقت أسارىر « عمر » ، فقد بدأ أنه لن يُساء في رجل وثق في دينه ،
واختاره بنفسه . . .

ثم قال للمشاكين : « ذا أيضاً . . ؟ »

قالوا : لا يُحِبُّ أحدٌ بلبيل .

قال سعيد : والله : « إن كنت لأكره ذكره » ، « إني جعلت النهار لهم ،
وجعلت الليل لله عز وجل » . .

قال عمر : وماذا أيضاً تشكون منه . . ؟

قالوا : إن له في الشهر يوماً لا يقابل فيه أحداً . .

وقال سعيد : ليس لي خادم يغسل ثيابي ، ففي هذا اليوم أغسلها ،
وأنتظرها حتى تجف ، ثم أخرج إليهم آخر النهار . .

قال عمر وقد غمره الحبور والبشر : الحمد لله الذي لم يُحِبِّ
فِرَاسَتِي . . ! !

إن سباده تكون غامرة ، حين تُحِبُّ شكوى ، وتظهر براءة لأنه
يريد أن يرى ولاته كلهم ، بل والناس جميعاً متفوقين على الضعف ، مُبرَّأين
من العيب . .

أرسل « عمير بن سعد » والياً على حمص ، فمكث هناك عاماً لا يرسل
خارجها . ولا تصل منه أية أنباء ، فقال « عمر » لكاتبه :

- « اكتب إلى عمير ، فأني أخاف أن يكون خائناً » . . . وأرسل
إليه يستدعيه . .

وذاث يوم شهدت شوارع المدينة رجلاً أشعث أغبر : تَغْشاه وَعْشاء
السفر ، يكاد يقتلع قدميه من الأرض اقتلاعاً من طول ما لاقى من عناء ،
وبذل من جهد . . على كتفه اليمنى جراب وقصعة . . وعلى كتفه اليسرى



قربة صغيرة فيها ماء .. وإنه ليتوكأ على عصاً لا يؤودها حمله الضامر
الوهنان ..

ودكف إلى مجلس « عمر » في خطوات مُثبِّدة ..

- « السلام عليك يا أمير المؤمنين » ..

ويرد « عمر » السلام ، ثم يسأله وقد آله ما رآه عليه من جهد وإعياء

- ما شأنك يا عمير ؟؟

- شأني ما ترى .. ألسنت تراني صحيح البدن ، طاهر الدم ، معي

الدنيا أجراها بقرنها .. ؟ !

قال عمر : وما معك .. ؟

قال عمير : معي جرابي أحمل فيه زادي ، وقصعتي آكل فيها ، وإداوتي ،

أحمل فيها وضوئي وشرابي ، وعصاي أتوكأ عليها . وأجاهد بها عدواً إن عَرَضَ ،

فوالله ما الدنيا إلا تبع لمتاعى ..

قال عمر : أجبث ماشياً .. ؟؟

- نعم ..

أو لم تجد من يتبرع لك بدابة تركبها .. ؟؟

- إنهم لم يفعلوا ، وإني لم أسأهم .. !

- فماذا عملت فيما عهدنا إليك به ؟؟

- أتيتُ البلد الذي بعثني إليه ، فجمعتُ صلحاء أهله ، ووليتهم

جباية فيئهم وأموالهم . حتى إذا جمعوها وضعتها في مواضعها ، ولو بقي لك

منها شيء لأتيتك به ..

- فما جئتنا بشيء .. ؟



- لا ...

قال « عمر » وهو منبر سعيد : « جَدُّدُوا لعمير عهداً » ..
قال عمير : « تلك أيام قد خلت ، لا عملتُ لك ولا لأحد بعدك » !!

والويل الشديد للوالى الذى يفكر فى أن يهدى لعمير هدية ما ..
والحق أنهم جميعاً كانوا من الفطنة بحيث لم يتورطوا قط فى أمر
كهذا .. ! !

ولم يفعله منهم مرة واحدة سوى الرجل الصالح الطيب « أبى موسى
الأشعرى » ..

ف ذات يوم عاد أمير المؤمنين إلى داره ، فوجد رقعة من سجاد لا تريد
على متر ، وبعض متر ، فسأل زوجه « عائكة » ..
- « ألى لك هذه .. ؟ ؟ »

قالت : أهداها إلينا أبو موسى الأشعرى .

- « أبو موسى .. ؟ ؟ ايتونى به » .. ! !

ويجىء أبو موسى ، تسبقه مخاوفه ، ولا يكاد يقترب من « عمر » ويلمح
« السجادة » فى يمينه ، « والتحفز » فى وجهه حتى يبادره القول « لا تعجل
على يا أمير المؤمنين » ..

ولكن أمير المؤمنين ، يُعاجله ، ويلفح بالسجادة رأسه ويقول له :

- ما يحملك على أن تهدى إلينا ؟ خذها فلا حاجة لنا فيها .. ! !

والويل كذلك . لمن يطمع فى أن يتسور مسئوليات هذا الرجل الكبير
بشفاعة يشفعها فى غير حق ..



حدث يوماً أن أنزل بأحد ولاته جزاء ، فانتهزت زوجه « عائكة » ساعة من ساعات فراغه وهدوئه ، وشفعت للرجل . ولم تزد على أن قالت : يا أمير المؤمنين ، فِيمَ وَجَدْتَ عَلَيْهِ . . ؟

هنالك انتفض « عمر » ؛ كأنما انهى من دين الله ركن ، وصاح فيها : - « يا عدوة الله ، وفيم أنت وهذا » . . . ؟ !

لو كان هذا الموقف من زوجته مشورة ورأياً ، لتقبل المشورة ، وبحث الرأي ، فسراه بعد حين ينحني في إعجاب وخشوع لسيدة عارضت رأيه في تحديد المهور . .

أما هنا ، فقد تصور « عمر » الموقف على أنه تدخل في المسئولية من غير مسئول ، ولون من الشفاعة أو الوساطة لا يسكت « عمر » عليه ، ولا يتسامح معه . .

هذه مسئوليته تجاه ولاته . .

فلننظر مسئوليته تجاه أموال الأمة . . وإنها لمسئولية تحير العقول وتبهر الأفئدة .

ولنبداً بهذا النبأ .

يقول عبد الله بن عامر بن ربيعة :

- « . . صحبت عمر بن الخطاب من المدينة إلى مكة في الحج ، ثم رجعنا ، فما ضرب له فسطاط ، ولا خباء ؛ ولا كان له بناء يستظل به . إنما يلقي كساء على شجرة فيستظل تحته » . . ! !

ويقول بشار بن نمير :

« . . سألتني عمر : كم أنفقنا في حجتنا هذه ؟ قلت : خمسة عشر ديناراً . . فقال : لقد أسرفنا في هذا المال » . . . ! !



أرأيتم إلى الرجل الذي وُضِعَتْ نَحْت عَتَبَةِ خَزَائِنِهِ أُمُوالُ كَسْرَى وَقَيْصَر ،
ثم يخرج إلى الحج وسط صحراء ملتبة ، فلا يهني لنفسه من ضرورات
الرحلة شيئاً . . . ؟ ! يذوق وَقْدَةَ الحر ، وقيظ الجبال المستعرة . مثلما
تذوقه كافة الناس ، وينفق خلال رحلته كلها خمسة عشر ديناراً . ثم يقول :
لقد أسرفنا . . ؟ !

قبل أن يلي أمور المؤمنين ويصير أميرهم ، كان تاجراً يكسب عيشه
ورزق أهله وعتاله من التجارة ، فلما تفرغ لمهمته الجديدة ، فرض لنفسه
من بيت المال ما يعيش به هو وعائلته في مستوى الكفاف . . .

وكان مع الأيام تزداد تبعاته ، وتزداد احتياجاته ونفقاته ، ويرفع كلما هب
الرخاء رواتب جميع المسلمين في المدينة وخارجها ، لكنه لا يفكر في أن
يزيد نفسه درهماً . . حتى سمع أصحابه يوماً أن أمير المؤمنين يقترض ليعيش ،
فاجتمع نفر من الصحابة معهم عثمان ، وعلى وطلحة ، والزبير ، واتفقوا
على أن يتحدثوا معه ، ويطلبوا إليه أن يزيد في راتبه ، ومخصصاته ، لكنهم
عادوا وتنبأوا محادثته ، لأنهم يعرفون أنه في هذه المسألة بالذات شديد
الوطأة ، لافح الغضب . .

قال عثمان : فلنستبرئ ما عنده من وراء وراء . . . واتجهوا إلى حفصة
بنت عمر ، واستكتموها أمرهم ، وطلبوا إليها أن تستطلع أمر أبيها . .
وذهبت حفصة إلى عمر متهيبة ، وأخذت تسوق الحديث بحذر
ورفق .

فقال عمر : من بعثك إلى بهذا . . ؟

قالت : لا أحد . .

قال : بل بعثك بهذا قوم ، لو عرفتهم لحاسبتهم . .



ثم قال لابنته : لقد كنت زوجة لرسول الله فماذا كان يقتنى في بيتك
من الملبس . . . ؟

قالت : ثوبين اثنين . . . ! !

قال : فما أطيب طعمة رأيته يأكلها . . ؟

قالت : خبز شعير طرى مَرُود بالسمن . .

قال : فما أوطأ فراش كان له في بيتك . . ؟

قالت : كساء ثخين . كنا نبسطه في الصيف ، فإذا كان الشتاء بسطنا

نصفه . . وتدثرنا بنصفه . . ! !

قال يا حفصة : « فأبلغني الذين أرسلوك إلى . أن مثلي ومثل صاحبي »

- الرسول وأبي بكر - كثلاثة سلكوا طريقاً . فمضى الأول وقد تزود فبلغ

المنزل . . ثم اتبعه الآخر ، فسلك طريقه فأفضى إليه . . ثم الثالث ،

فإن لزم طريقهما ورضى بزادهما ألحق بهما . . وإن سلك غير طريقهما

لم يجتمع بهما . . . ! ! !

أهناك كلام يصلح أن يكون تعليقاً على هذا المشهد الفذ العجيب . . ؟ !

كلا . . فلندعه بدون تعليق . . . ! ! !

وكانت القيامة تقوم إذا سمع « عمر » أن درهماً واحداً من الأموال العامة

قد اختلس ، أو انتهب ، أو أنفق في ترف أو إسراف . .

كان يرتجف ، ويرجف ، كأن خزائن المال كلها قد ضاعت ، وليس

درهماً أو بعض درهم . . ! !

وكان يُقسم لو أن بعيراً من إبل الصدقة ضاعت على ضفاف دجلة



أو الفرات ، وعمر بالمدينة ، لخاف أن يسأله الله عنه . . !
وفي يوم صائف قانظ يكاد حره يذيب الجبال ، أطل « عثمان بن عفان »
من بناية له بالعالية ، فرأى رجلاً يسوق أمامه بعيرين صغيرين والهواء الساخن
يغشاه كلفح السموم . .

فقال محدثاً نفسه : ما على هذا الرجل لو أقام بالمدينة حتى يُبرد . ؟
وأمر خادمه أن ينظر من هذا الرجل العابر من بعيد ، والذي تحنى الزوبعة
والرمال السافيات معاملة . .

ونظر الخادم من فُرجة الباب ، فقال : أرى رجلاً معممًا بردائه يسوق
بكرين أمامه . وانتظر حتى اقترب الرجل ، فعرفه الخادم وصاح : إنه عمر . .
إنه أمير المؤمنين . . ! !

فأخرج عثمان رأسه من كوة صغيرة متوقياً سخونة الريح ، ونادى :
- ما أخرجك هذه الساعة يا أمير المؤمنين ؟

أجاب عمر : بكران من إبل الصدقة ، تخلفا عن الحمى - المرعى -
وخشيت أن يضيعا ، فيسألني الله عنهما . . ! !

قال عثمان : هلم إلى الظل والماء ، ونحن نكفيك هذا الأمر

فقال له عمر : عد إلى ظلك يا عثمان . .

قال : عندنا من يكفيك هذا الأمر يا أمير المؤمنين . .

قال مرة أخرى : عد إلى ظلك يا عثمان . . ومضى لسبيله والحر يصهر
الصخر . .

فقال عثمان مأخوذاً ومبهوراً : « من أراد أن ينظر إلى القوى الأمين ،

فلينظر إلى عمر . . » ! ! !

والقوى الأمين يباشر مسئولياته المالية . مباشرة ذكية عميقة فهو لا يُعنى

هـ فهو - مثلاً - يقاوم فكرة توزيع أرض السواد على الفاتحين لأن ذلك يخلق طبقة محتكرة ، وفي الوقت نفسه ، عاجزة عن خدمة الأرض ، غير خبيرة بزراعتها ، ويترك الأرض تحت أيدي زارعها ، مكثفياً بالضرائب التي تدفع لبيت المال ، ثم ينال كل مسلم حظه منها . .

• وهو كذلك يحض المسلمين على الكسب المشروع ، فيغريهم بالتجارة الشريفة النظيفة ، قائلاً لهم : غداً سيكون لكم أبناء وحفدة ، فماذا يغني عنكم هذا الذي بأيديكم ؟ !

« وهو يعنى عناية خاصة بالثروة الحيوانية ، فيخصص للماشية مرعى خاصياً رحيباً ، يرعى المسلمون فيه ماشيتهم بغير مقابل ، وإنه ليتعهد هذا المرعى دائماً ، وقلما كان يوم يمر دون أن يرى الناس « عمر » ، قد خرج منتصف النهار ، واضعاً ثوبه فوق رأسه ليقيه من الشمس ، قاصداً أرض الحمى والمرعى ، يتعاهدها ويتفقددها ، ويحذر حارسها من أن يسمح لأحد



أن يَعْصِدَ شيئاً من شجرها ، أو أن يضرب فيها بفأس . . . ! !

• • •

ولا يخطر بالبال ونحن نتحدث عن المال وعن الدخل القومي أيام عمر ،
أننا نتحدث عن أموال شحيحة وموارد ضئيلة ، فإن « عمر » لم يمت إلا بعد
أن كان يحرك يده القوية الأمانة في دخل من أضخم المدخول يومئذ بعد
أن آلت إلى الإسلام معظم ممتلكات الروم والفرس . . . ! !
ولم يمت « عمر » حتى كان هناك لكل فرد راتب سنوي يكفيه أو
يقارب كفايته ، لا في عاصمة الدولة وحدها ، وهي المدينة ، بل في كل
أقطار الإسلام . . . ! ! !

يقول له خالد بن عرفطة :

- « يا أمير المؤمنين تركتُ الناس يسألون الله أن يزيد في عمرك من
أعمارهم . . ما وَطِئَ أحد القادسية إلا وعطاؤه ألفان ، أو خمس عشرة مائة .
وما من مولود يولد إلا ألحق في مائة وجريين كل شهر ذكراً أو أنثى .
وما يبلغ لنا ولد إلا ألحق على خمسمائة أو ستائة » . . . ! !
وحرص عمر على تنمية الثروة ، لم يحمله قط على سلوك سبيل فيها
جشع أو إرهاب . .

فالثروة عند عمر ، في خدمة الإنسان ، وليس الإنسان في خدمة

الثروة . . . ! !

لهذا ، كان يُنزل غضبه الشديد على كل وال يحرم أهل ولايته لكي
يرفع إلى المدينة خراجاً كبيراً يظن أنه يكسبه رضا أمير المؤمنين . .
وكان يأمر أن تقسم خيرات البلد - أي بلد - على أهلها أولاً ، فإذا



بلغوا كفايتهم . رفع إلى عاصمة الدولة نصيبها . .
 وكان يأمر عماله أن يتقاضوا الضرائب في رفق وعدل ورحمة .
 حُمل إليه يوماً مال وفير من أحد الأقاليم ، فسأل عن مصدره وعن سر
 وفرته وكثرته ، فلما علم أنه من ضريبة الزكاة التي يدفعها المسلمون ،
 وضريبة الجزية التي يدفعها أهل الكتاب ، قال وهو ينظر إليها كثيرة
 عارمة :

- إني لأظنكم قد أهلكتم الناس . .
 - قالوا : لا والله ، ما أخذنا إلا صَفْوَ عَفْوَ . . .
 قال : بلا سوط ، ولا نوط . . ؟ ؟

قالوا : نعم . .
 قال ووجهه يتهلل ويُشرق : « الحمد لله الذي لم يجعل ذلك على ولا
 في سلطاني » . . ! !
 وكان يُعنى من ضريبة أهل الكتاب ، كل من عليه دين يستغرق ماله .
 ذلك لأنها لم تكن ضريبة إذلال ، بل ضريبة دخل ، فإذا عجز عنها دافعها ،
 وضعت عنه فوراً . . ! !
 وبعد . . فهذا هو « عمر » ، الحاكم المسئول . . وهذه هي طريقته

في تحمل مسئولياته جميعها .
 هذا هو الرجل الذي كانت جيوشه تُدبّل مظالم الروم والفرس وتدكُّها
 دكًّا ، بينما هو يسير في طرقات المدينة لابساً ثوباً به إحدى وعشرون
 رقعة . . ويبطئ عن المسلمين يوماً في صلاة الجمعة ثم يعتذر إليهم حين
 يصعد المنبر قائلاً :

- « حبسني قميصي هذا ، لم يكن لي قميص غيره » . . ؟ ؟ ؟



إن مسئولياته المباركة دفعته إلى نهايات الطرق ، وقمم المثل ؛ فجاءت تصرفاته كلها تمثل أقصى ما يستطيع الكمال الإنساني أن يبلغه . . .
 « فِتْجَاهَ مسئوليته عن نفسه وأهله ، يُحْمَلُهم كل مغارم الحكم ويحرمهم من كل مغائمه . . . ! !

« وَتِجَاهَ ، وُلاته ومعاونيه ، يَخْتَارُهم بنفسه . ويلزمهم صراطاً مستقيماً أحداً من الشفرة ، وأرق من الشعرة . . . ! !
 « وَتِجَاهَ أموال الأمة ، يبلغ أقصى درجات الحِفاظ عليها ، والزهد فيها . . . ! !

« وَتِجَاهَ الجبارين العتاة ، يبلغ أقصى أسباب الشدة والحزم . . . ! !
 « وَتِجَاهَ الضعفاء والبسطاء يبلغ غاية المدى في الحدب واللين . . . ! !
 إن مسئوليته تقوده . وإنه ليياشرها بروح المُخَيَّبِ العابد الأواب . . .
 وإن عظمة سلوكه ، كرجل مسئول ، لا تتمثل في العجالة التي سردناها إلا كما يتمثل ضوء الشمس في الشعاع المتسلسلة من حنايا النافذة . . . ! ! !
 ألا وإن عمر الحاكم ، ليتعب كل حكام التاريخ ، ويجعل مسئوليتهم فادحة وكبيرة . . .

ذلك أنه لم يكن إلهاً ولا ملكاً ، ولا رسولاً يوحى إليه . ، إنما كان فرداً من الناس يجتهد رأيه ، وينهض بعزمه . ولقد استطاع أن يبلغ ذلك الشأو البعيد في عدله ، وفي رحمته ، وفي أمانته ، فما عذر الآخرين إذا قعدت بهم عزائمهم ؟ ! . . .

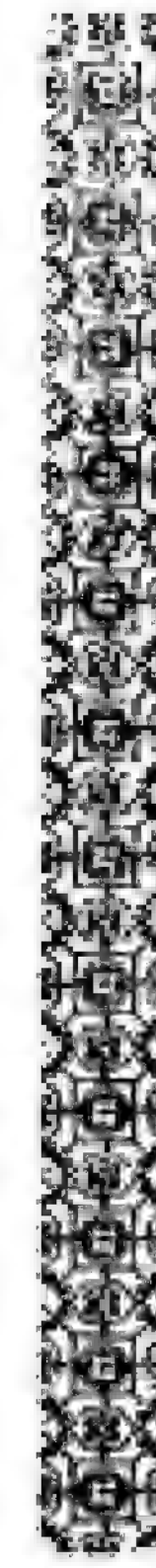
إن « عمر » الحاكم ، حجة الله على كل حاكم . . .
 فإذا قال حاكم ما ، ساعة حسابه : يا رب عجزت . . .
 قال الله له : ولماذا لم يعجز عمر . . . ؟ ؟ ! !



الفصل الرابع

والأخير فبينا إذا لم نسمعها





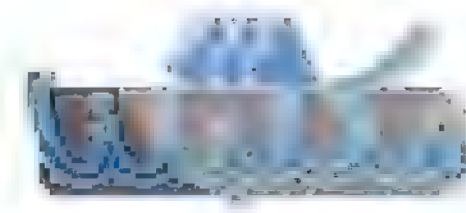
لم يكن أمير المؤمنين يحمل مسئوليته حُمَلاً ن رجُل مفتون بنبوغه صَليِّف
بمكانه ، مُستعلٍ بسُلْطانه .

بل كان يحملها بضمير الأمين على العهد . الباحث عن الحق ،
المستنهض وجود الآخرين وتفكيرهم ليأخذوا مكانهم معه ، ويُنضجوا
بآرائهم رأيه ، ويُعاونوا برُشدهم رُشده . .

ولقد اقتضاه هذا ، أن يقدّس الشورى ، ويحنى رأسه العالى فى خشوع
وتهلل لكل معارضة شجاعة صادقة . .

فإذا بهرنا جلال المسئولية عند « عمر » ، وسُموقها الصاعد فى السماء ،
فلنضع أعيننا على القاعدة التى استقرَ فوقها هذا البناء العملاق . - ألا وهى
الشورى والمعارضة .

وإنه لأمر عجيب حقاً أن يرفع لواء الرأى والمعارضة إلى المدى البعيد
الذى سنراه ، رجل يؤمن بالنصوص إيماناً مطلقاً . . . رجل يخاف أن
يفسر الآية من القرآن ، خشية أن يُحملها من رأيه مالا تحتمل . . !



رجل لا يبيع لنفسه أن ينحرف قيد أنملة عن المنهج الموضوع ، والخطة
 المرسومة ، وبعبارة واحدة : رجل طاعةٍ ، وإيمان ، ومتابعةٍ . . . ! ! !
 ولكن العجب ، أن نرى في هذه الظاهرة أيَّ عجب . .
 فالذين يعرفون « محمداً » . ودين محمد معرفة سوية عاقلة ، يعرفون
 أن احترام النص ، لا يعنى إهدار الرأي . وأن الطاعة المؤمنة ، لا تنفصل
 عن المعارضة الأمينة . .
 ثم إن « عمر » لم يكن بطبيعته رجل مُسَايِرَة . صحيح أنه رجل إيمان
 وطاعة كما ذكرنا . .

ولكنها الطاعة والإيمان والمتابعة التي يفرضها الاقتناع الوثيق
 وهو قد اقتنع بالرسول وآمن به . . ومن ثم فهو يقفواثره في غير تردد أو
 التفات . .

وإنه ليناقدش الأمور التي تحتاج إلى مناقشة . . . ويُسلم تسليماً لقضايا
 لا يفهم - أحياناً - حكمها ، ولكنه مقتنع سلفاً بالرسول الأمين الذي
 جاء بها . .

يُقبل الحجر الأسود في الكعبة ، ثم يقول كأنه يخاطبه :
 - « إنك حجر لا تضر ولا تنفع ، والله لولا أنى رأيت رسول الله
 يقبلك ما قبلتك » . . ! !

ويُهرول كاشفاً عن منكبيه ، ويقول :
 - « فيم هذا الرَّمْلَان ، - الهرولة - والكشف عن المناكب ،
 وقد أظهر الله الإسلام ونفى الكفر ؟ ومع هذا لا ندع شيئاً كنا نفعله في عهد
 رسول الله صلى الله عليه وسلم » .

بل إنه ليعمد إلى ميزاب في دار العباس فيقتلعه من مكانه إذ كان



ماء المطر يسيل منه إلى فناء المسجد . ولكن لا يكاد العباس يخبره أن الرسول هو الذى وضع هذا الميزاب مكانه ، حتى يسارع « عمر » ، فيجىء بالميزاب ، ويقسم على العباس ليقفن فوق منكيه - منكي عمر - ويعيد الميزاب إلى حيث وضعته يد الرسول من قبل . . . ! !

وإنه ليسأل عن تفسير الآية الكريمة : « والذاريات ذروا فالحاملات وقرأ » فيقول : الذاريات ذروا ، هي الريح . . . ولولا أنى سمعت رسول الله يقوله ما قلته ، والحاملات وقرأ . هي السحب . . . ولولا أنى سمعت رسول الله صلى عليه وسلم يقوله ما قلته . . . ! !

إلى هذا الحد كان « عمر » وقافاً عند النصوص والتعاليم ، ملتزماً التأسي والقدوة .

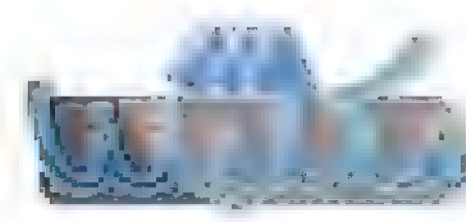
ومع هذا ، فقد آمن بالشورى إيماناً مماثلاً لإيمانه بالنص والقدوة - والشورى رأى ومعارضة . .

ولست أعرف شيئاً يرفع من قدر الشورى في كل عصور التاريخ كما يرفع من قدرها إيمان « عمر » بها . وأسلوبه في تطبيقها . . إن تطور الحياة السياسية في المدينة لم يكن يومئذ قد أذن للمؤسسات الديمقراطية أن تظهر ، من « برلمان » وغيره . .

ومع هذا فقد ظفرت الديمقراطية من ذلك الرجل ، وفي تلك البيئة وذلك العهد . بخير فرص التآلق والازدهار . .

لم يحاول عمر قط أن يفرض رأيه ، أو أن يملك مشيئته ، ولم يتفرد ساعة من نهار بحكم الناس دون أن يشركهم معه في مسئولية هذا الحكم مشاركة فعالة صادقة . .

والرائع الباهر فيه ، أنه لم يكن يفعل ذلك تواضعاً أو تفضلاً . . بل



سجية ، وفطرة ، وواجباً . .

إذا كانت القضية التي يريد عمر أن يفصل فيها ، لها في كتاب الله بيان أنجز « عمر » كلمة الله . .

وإذا كانت من المشاكل الطارئة والقضايا الجديدة التي ليس لها في الكتاب تفصيل ، لم يعتسف « عمر » ولم يتكلف ، ولم يضع الآية الكريمة : « ما فرطنا في الكتاب من شيء » في غير موضعها .

بل يعتمد من فوره إلى الرأي والشورى وتقليب وجوه النظر . .
والرأي عنده ، ليس التماساً للموافقة ، بل التماساً للحقيقة ولطالما كان يقول للناس :

- « لا تقولوا الرأي الذي تظنونه يوافق هواي . وقولوا الرأي الذي تحسبونه يوافق الحق » . .

ولنطالع هذا المشهد من مشاهد شوره :

- حين حرر المسلمون بلاد العراق من حكم الفرس ، ودخل أكثر أهلها في دين الله ، رأى « عمر » ألا يقسم أرضها الزراعية بين المجاهدين ، وأن تظل كما هي بأيدى أصحابها ، ثم ترد الضرائب المأخوذة عليها إلى بيت المال ، فتقسم بين الناس جميعاً كل منهم ونصيبه المفروض .

وكان يرى أن تقسيم الأرض بين المجاهدين ، سيقعد بهم عن الجهاد أولاً ، وينقص غلة الأرض لضعف خبرة المجاهدين بالزراعة ثانياً ، ويخلق في الإسلام طبقة من الإقطاعيين والمحتكرين ثالثاً ، كما أنه سيدع الآخرين الذين لم يملكوا ، ضائعين ، ويحرم الأجيال الوافدة من حقها ورزقها . وعارض رأيه هذا نفر من الصحابة .

وكانوا كلما علا صوتهم ، واحتدّت معارضتهم ، قال « عمر » في هدوء :



« إنما أقول رأيي الذي رأيته » . .

وانفض الجمع من غير اتفاق على كلمة . .

وفي اجتماع آخر ، وكان « عمر » قد دعا فريقاً من الأنصار المشهود لهم بالحُكْمَة ونضج التجربة . فُتِحَ باب المناقشة ، ونحش « عمر » أن يجامله أحد في رأيه بوصفه أمير المؤمنين . فبدأ الحديث قائلاً :
« إني دعوتكم لتشاركوني أمانة ما حملتُ من أموركم ، فإني واحد كأحدكم ، وأنتم اليوم تقررون بالحق . خالفني من خالفني ، ووافقني من وافقني . ولست أريد أن تتبعوا هواي ، فمعكم من الله كتاب ينطق بالحق . فوالله لئن كنتُ نطقتُ بأمر أريده ، فما أريد به إلا الحق » . . .

والشورى ، والمعارضة عند أمير المؤمنين ، هما جناحا الحكم الصالح القويم ، وهما رِئْتَا كل حكم سديد .
من أجل هذا ، لا يكاد يلي الأمر ، وينسمع همس الناس حول شدته وصرامته حتى يخلو بنفسه مفكراً ، ويدخل عليه « حذيفة » فيجده مهموم النفس باكى العين . فيسأله : ماذا يا أمير المؤمنين ؟ ؟
فيجيب عمر : إني أخاف أن أخطئ فلا يردني أحد منكم تعظيماً لي . .
يقول حذيفة ، فقلت له :

« والله لو رأيته خرجت عن الحق . لرددناك إليه » .

فيفرح « عمر » ، ويستبشر ويقول :

« الحمد لله الذي جعل لي أصحاباً يقومونني إذا عوججت » . .

إن أعظم مظاهر التكريم للمعارضة ، نراها في مواقف هذا العاقل



القد منها . . في ولائه الوثيق لها ، وتوفير كل فرص الطمأنينة والأمن بل
الإكبار لذويها . .

يصعد المنبر يوماً فيقول :

« يا معشر المسلمين ، ماذا تقولون لو ملئت برأسي إلى الدنيا هكذا . . ؟ ؟
فيشق الصفوف رجل ويقول وهو يلوح بذراعه كأنها حُسام ممشوق :
« إذن نقول بالسيف هكذا . .

فيسأله عمر : إياي تعني بقولك . . ؟ ؟

فيجيب الرجل : نعم إياك أعني بقولي . . !

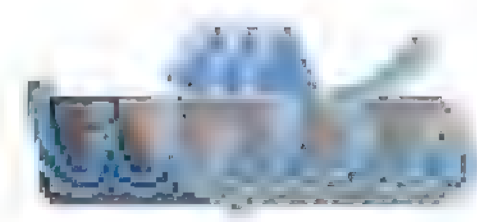
فتضئ الفرحة وجه « عمر » ويقول :

« رحمك الله . . . والحمد لله الذي جعل فيكم من يقوم عوجي . . ! !
لم يكن هذا الموقف من أمير المؤمنين موقفاً استعراضياً ، فعمر أكثر قوة
وأمانة ، من أن يلجأ لمثل هذه المواقف ، إنما كان سلوكاً صادقاً ، ونهجاً
تلقائياً مخلصاً ، ينشد « عمر » من ورائه الوصول إلى الحق والطمأنينة
إلى أنه يحكم أمة من الأسود ، لا قطعاً من النعاج . . . ! !

إن « عمر » حريص على أن يمكن الناس - جميع الناس - من حقهم
في ممارسة الأمر معه وأخذ مكانهم إلى جانبه .

ولو أنه بطش بالمعارضة ، ولو مرة ، إذن لباءت الشورى في عهده
بخذلان كبير ، لكنه فعل نقيض هذا تماماً . . أقصى عنه أهل المجاملة
والمداينة ، ورفع مكاناً عالياً أولئك الذين يناقشون ، ويعارضون . ويقولون :
إلى أين . . ؟ ولماذا . . ؟

وكان فرحه بكلمة جريئة مُحِقَّةٌ يُجَابَه بها ، أو يُجَابَه بها أحد من ولاته
تفوق كل فرح آخر على وجه الأرض . .



ذات يوم يصعد المنبر ، ليحدث المسلمين في أمر جليل ، فيبدأ خطبته بعد حمد الله . بقوله « اسمعوا برحمكم الله » .

ولكن أحد المسلمين ينهض قائماً ، فيقول :

والله لا نسمع . . ، والله لا نسمع . . ! !

فيسأله « عمر » في لهفة . ولم يا سلمان . . ؟ !

فيجيب « سلمان » . ميّزت نفسك علينا في الدنيا . أعطيت كلاً منا

بردة واحدة ، وأخذت أنت بُردتين . . ! !

فيُجيب الخليفة بصره في صفوف الناس ثم يقول :

- أين عبد الله بن عمر . . ؟

فينهض ابنه عبد الله : ها أنذا يا أمير المؤمنين . .

فيسأله عمر على الملأ : مَنْ صاحب البردة الثانية . . ؟

فيجيب عبد الله : أنا يا أمير المؤمنين . .

ويخاطب « عمر » سلمان والناس معه فيقول :

- إنني كما تعلمون رجلاً طوالاً ، ولقد جاءت بردتي قصيرة ، فأعطاني

عبد الله بردته ، فأطّلت بها بردتي . .

فيقول سلمان وفي عينيه دموع الغبطة والثقة :

- الحمد لله . . والآن قل نسمع ونطع يا أمير المؤمنين ! ! . .

أبلغ الناس من حرية المعارضة أن يُحددوا للحاكم عدد أثوابه وملابسه ،

وبهذه اللهجة الصارمة . . ؟ !

ألا مَنْ كان يعرف لهذا نظيراً في التاريخ كله ، فليأتنا به . . ! !



في يوم آخر ، وهو جالس مع إخوانه ، يحترم الصفوف رجل تائر ،
ملء قبضته شعر مخلوق ، ولا يكاد يبلغ « عمر » حتى يقذف بالشعر في
صدره في مرارة واحتجاج ..

ويموج الناس بالغضب ، ويهم به بعضهم ، فيومئ إليهم « عمر »
ثم يجمع الشعر بيده . ويشير للرجل ، فيجلس ، وينتظر عليه « عمر »
حتى يهدأ روعه ، ثم يقول له :
- والآن ، ما أمرك .. ؟ ؟

فيجيب الرجل وقد عادت إليه ثورته :

- أما والله ، لولا النار يا عمر .. !! !

فيقول عمر : صدقت والله .. لولا النار .. !! ما أمرك يا أخا العرب . ؟
ويقص الرجل شكاته ، وفحواها أن « أبا موسى الأشعري » أنزل به
عقوبة لا يستحقها .. فجلبده وحلق شعر رأسه بالموسى ، فجمع الرجل
شعر رأسه وجاء به إلى « عمر » ..

فينظر عمر إلى وجوه أصحابه ويقول :

- لأن يكون الناس كلهم في قوة هذا ، أحب إلى من جميع ما أفاء

الله علينا .. !! !

ثم يكتب لأبي موسى يأمره أن يُمكن الرجل من القصاص منه -
جلداً بجلد وحلقاً بحلق .. !! !

هذا حاكم يهتز فرحاً لكل احتجاج قوى ، أو معارضة شجاعة -
وإن رجلاً واحداً يطالب بحقه في غير حذر ، ويقول كلمته في غير جبن
لأحب إليه كما قال ، من كل ما فُتح له من الأرض ، ومن كل ما ورث
عن كسرى وقيصر .. !! !



كان «عمر» واثقاً بنفسه . وباستقامة نهجه ، ومن ثم لم يكن يُحاذر
النقد أو يخاف المعارضة ، بل كان يبحث عنهما ، ويثيب عليهما ، ويشيرهما
في قلوب أمته وعقول شعبه . ويتخذ منهما مشعلاً يستضيء به وحُجَّة يستكمل
بها صواب أمره . . .

يخطب الناس يوماً فيقول :

- « لا تزيدوا مهور النساء على أربعين أوقية ، فمن زاد ألقبت الزيادة
في بيت المال » . . .

فتنهض من صفوف النساء سيدة تقول : ما ذاك لك . . .

فيسألها : ولم . . ؟

فتجيبه : لأن الله تعالى يقول : « . . وآتيتُم إحداهن قِنْطَاراً فلا تأخذوا
مِنْهُ شيئاً ، أْتَأْخُذُونَهُ بُهْتَاناً وَإِثْمًا مُّبِيناً » .

فيتهلل وجه «عمر» . ويتسم ويقول عبارته الماثورة : « أصابت
امراة ، وأخطأ عمر » . . .

وحتى حين كانت تأتيه المعارضة غَضَبِي لَافِحَةٍ . لم يكن يضجر
منها أو يضيق بها .

بعد أن عزل «خالد بن الوليد» جمع الناس في المدينة وقال لهم :
- « إني أعتذر إليكم من عزل خالد ، فأني أمرته أن يحبس هذا
المال على ضَعْفَةِ المهاجرين ، فأعطى ذوى البأس ، وذوى الشرف ،
وذوى اللسان » . . .

فتنهض أبو عمرو بن حفص بن المغيرة وقال :

- « والله ما أعذرت يا عمر ، ولقد نزعْتَ قتي ولأه رسول الله ،
وأغمدت سيفاً سلَّه رسول الله ، ووضعتُ أمراً رفعه رسول الله . وقطعتُ



رَحِمًا ، وحَسَدَتَ بَنِي الْعَمِّ . . . ! !
 قَطِيعَةٌ رَحِمَ . . . وَحَسَدَ . . . يُتِّهِمُ بِهِمَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ هَكَذَا فِي غَضَبٍ
 وَعَلَى الْمَلَأَ . . . ؟ !

أَجَل ، وَمَا زَادَ «عَمْرٌ» عَلَى أَنْ ابْتَسَمَ ابْتِسَامَةً صَافِيَةً ، وَقَالَ مُخَاطَبًا
 أَبَا عَمْرٍو : « إِنَّكَ قَرِيبٌ قَرَابَةٍ ، حَدِيثُ السِّنِّ ، تَغْضِبُ فِي ابْنِ عَمِّكَ » . . . !

• • •

هَذَا لَيْسَ حَاكِمًا عَادِلًا وَحَسَبَ . . . بَلْ هُوَ مُعَلِّمٌ كَبِيرٌ ، وَصَاحِبُ
 مَهَارَةٍ بِاللُّغَةِ فِي صَقْلِ الْجَوْهَرِ الْإِنْسَانِيِّ وَبِعْثِ قَوَاهِ .

فَأَيُّ أَثَرٍ بَاهِرٍ يَتْرَكُهُ مَوْقِفُ كَهَذَا فِي أَفْتَدَةِ النَّاسِ . . . ؟ ؟
 وَأَيَّةُ طِمَآنِيَةٍ غَامِرَةٍ يَمْلَأُ بِهَا الْقُلُوبَ حَاكِمُ هَذَا سُلُوكُهُ . . . ؟ !
 وَلَكِنْ ، لَمْ لَا يَفْعَلْ «عَمْرٌ» هَذَا ، وَأَكْثَرُ مِنْهُ ، وَهُوَ تَلْمِيزُ رَسُولِ اللَّهِ :
 وَصَاحِبُ أَبِي بَكْرٍ خَلِيفَتَهُ . . . ؟ !

وَلَقَدْ رَأَى بَعْضُهُ وَسَمِعَ بِأُذُنِهِ أَعْرَابِيًّا مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ يَنْهَجُمُ عَلَى رَسُولِ
 اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَيَقُولُ لَهُ وَهُوَ بَيْنَ أَصْحَابِهِ :

— « أَعْطَنِي ، فَلَيْسَ الْمَالُ مَالُكَ وَلَا مَالُ أَبِيكَ »

وَيَرَى الرَّسُولَ يَبْتَسِمُ ، وَيَقُولُ لِلرَّجُلِ :

— « صَدَقْتَ » إِنَّهُ مَالُ اللَّهِ . . . ! !

وَيَسْتَفْزِزُ الْمَشْهَدَ رَجُلًا ، هُوَ «عَمْرٌ» نَفْسُهُ ، فَيَهْمُ بِالْأَعْرَابِيِّ لِيَبْطِشَ بِهِ ،
 فَيُرَدِّدُهُ رَسُولُ اللَّهِ فِي رَفَقٍ . وَابْتِسَامَتُهُ تَعْلُو شَفْتَيْهِ كَتَهْلُلِ الرَّبِيعِ ، وَيَقُولُ لَهُ :

— « دَعِهِ يَا عَمْرُ . إِنْ لَصَاحِبُ الْحَقِّ مَقَالًا » . . . ! !

أَجَل ، عَلَى هَذَا النِّهَجِ الْمُسْتَقِيمِ يَمْضِي عَمْرٌ مُقَدَّرًا كُلُّ نَقْدٍ نَافِعٍ ،



موقراً كل معارضة أمينة . .

وإن لجميع الناس الحق في أن يشيروا على أمير المؤمنين ، وفي أن يعارضوا ما لا يقنعهم من تصرفاته .

ولقد تركهم يفهمون تماماً أن الشورى ليست ترفاً ، ولا ملء فراغ . . إنما هي نهوض الشعب بمسئوليته مع الحاكم بدأ بيد ، ورأياً برأى ، ومشئئة بمشيئة . .

وكان إيمان الناس بأن أميرهم جاد في معرفة آرائهم ، وتمحيص رأيه . . وكانت التجارب الكثيرة التي أثبتت حفاوته بالمعارضة ، واحترامه للشورى . .

كان هذا وذاك على رأس الحوافز التي ألهمت الناس - جميع الناس - الشجاعة في إبداء الرأي ، والمشاركة في حمل تبعة المصير .

لقد كان عمر خبيراً بأولئك الذين يرصدون الريح ، ويستنبطون هوى الحاكم ، فيسبقونه بالرأى الذي يساير هواه . . ! !
كان خبيراً بهؤلاء ، فلا يقيم لهم وزناً . .

وكان يقول لأحدهم إذا تقدم لتمثيل دوره : « يا عدو الله ، والله ما أردت الله بهذا . . ! ! »
وكان هؤلاء قلة باهتة .

أما الأكثرون ، فقد كانوا من الطراز الرفيع الباهر الذي يقول كلمته واضحة ، صادقة ، صادقة ، نافعة ، يملها عليهم إيمانهم بواجبهم وبحقهم معاً . . ويشجعهم عليها سلوك أمير المؤمنين تلقاء نصحاؤه ومعارضيه . .



وعظيم من عمر ، أنه كان يلتمس المشورة والرأى ، كفرد عادى لا كحاكم
وأمر للمؤمنين . .

فهو إذ يطلب الرأى فى أمر ، لا يبدى عن أى مظهر من مظاهر السلطة . .
بل يشعر الآخرين بأنهم يُسَدون إليه خيراً جزيلاً ، وينقدونه من وطأة
الحساب إذ يساعدونه بآرائهم على تبين الصواب والحق . . ! !
وبهذه الروح نفسها يتلقى - كما رأينا - كل معارضة له ، بل وتنديد
به . .

كان يجتاز الطريق يوماً ، ومعه « الجارود العبدى » فإذا امرأة تناديه
وتقول :

- رُويدك يا عمر ، حتى أكلمك كلمات قليلة . .
ويلتفت « عمر » وراءه . ثم يقف حتى تبلغه السيدة . فتقول له وهو
مُضغ مبتسم :

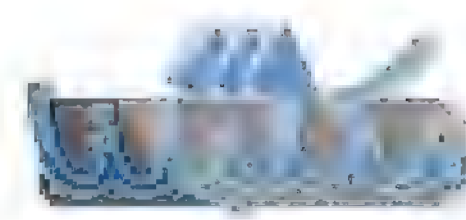
- يا عمر : عهدى بك ، وأنت تسمى « عُميراً » تصارع الفتيان
فى سوق عكاظ ، فلم تذهب الأيام حتى سميت « عمر » . . ثم لم تذهب
الأيام حتى سميت « أمير المؤمنين » . . فاتق الله فى الرعية ، واعلم أن من خاف
الموت ، خشى القوت . . ! !

فقال لها « الجارود العبدى » : اجترأتِ على أمير المؤمنين .
فجذبه عمر من يده وهو يقول : دعها فإنك لا تعرفها ، هذه « خولة
بنت حكيم » التى سمع الله قولها من فوق سبع سماواته وهى تجادل الرسول
فى زوجها وتشتكى إلى الله . فعمر والله حَرى أن يسمع كلامها . . ! !



إن فطرة العربي ، وروح الإسلام ، أمدًا للمسلمين الأوائل لا شك
بهذا الحظ العارم من الشجاعة في مواجهة الحاكم .
ولكن لا ريب في أن هذه الشجاعة الخارقة ما كانت ستبلغ مداها
الشامخ هذا ، لو لم يكن سلوك الحاكم تجاهها سلوكًا نبيلًا جليلاً يساعد
على إربائها لا إطفائها - الأمر الذي كان يصنعه « عمر » . .
لقد نجت الشورى في عهد هذا الرجل الكبير من كل ضائقة وأزمة .
ذلك أن أزمة الشورى توجد عندما يوجد الحاكم الذي يحب السلطة ،
أكثر مما يحب الحرية . .

و « عمر » لم يفعل نقيض ذلك فحسب ، بل إنه نظر إلى السلطان كما
ينظر المضطر إلى لحم الميتة . . !
وعلى الرغم من أنه جرد السلطة حين مارسها من كل زهوها ، ومن
كل إغرائها ، ومن كل ضراوتها ، فقد ظل ينظر إليها نظرته تلك ، وظلت
علاقته بها علاقة من حُبل عليها ، لا من سعى إليها . .
ولقد كان دائماً يعدُّ الشعب وبيئته ليكون هو الحاكم الحقيقي ،
وليكون الخليفة الحق له يوم يذهب عن هذه الدنيا .
كان كل همه أن يتركه شعباً قوياً صلباً ، ولقد فعل . . .
وضع في خدمته كل دخل الدولة . وأقام من أجله الثغور ، والحصون ،
وشاد له المدن والأمصار . .
ثم مع هذا ، بل قبل هذا ، وضع كلتا عينيه على القوة النفسية للشعب .
تلك التي تتمثل في شعوره الحقيقي بأنه سيد . . وبأنه أمين كل الأمن . .
وبأنه يصنع مصيره ، ولا يُفاجأ به . . !
وهكذا أخضع « عمر » للشورى كل خطة وكل قرار . . وأعطى الحق



كل توقيع وكل إكبار . . ولم يجعل الشورى وفقاً على بطانة أو فريق من
الناس . بل احترامها كحق مبرور للأمة كلها . ! !
ذلك أن أمير المؤمنين لم يكن رجلاً بطانة . . بل كان رجلاً أمة ، ورجلاً
عالم ، ورجلاً تاريخ . . ! !

نحن أمام إنسان فيه كل أصالة نشأته ، وبيئته ، ودينه . .
رجل يعرف مكانه من الناس ، ويعرف مكان الناس منه ، ويعرف
مكانه والناس معاً من تيار الحياة الإنسانية الهادر .
ثم هو بصير بحقائق عالمه من غير أن يدرس هذه الحقائق في جامعة
أوفى كتاب . .
وأولى هذه الحقائق كما يعلم ، وكما عبر هو في أعذب وأمتع وأجمع
قول : « متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً » . . ؟
هذه أولى حقائق عالمنا الإنساني ، كما يدرك « عمر » : « الحرية
حق تعلنه لحظة الميلاد » . .
وهو كحاكم ، لا يخافها ، ولا يخجل منها ، بل يحبها حب عاشق ويقدرها
تقديس مؤمن . .
ومفهوم الحرية عنده في منتهى اليسر . وأيضاً في منتهى الشمول .
فالحرية ، هي حرية الحق . . .
الحق فوق جميع القيود . .
وما دام الناس هم الذين يكتشفون الحق ، فيجب أن يكونوا أحراراً
في ممارسة كشفه . .



وما دام لا يوجد إنسان واحد يملك الحق وحده ، أو يعرفه وحده ؛
 فلكل فرد إذن الحق في أن يسلك طريقه إلى معرفة الحق . .
 أى أن الناس أحرار في أن يعلنوا آراءهم ، ويحدثوا بما في أنفسهم
 فإن يك صواباً ربح المجموع هذا الصواب ، وإن يك خطأ تبين صاحب
 الخطأ خطأه . .

ولكن من حق « عمر » علينا أن نقول : إن هذا الحق الذى يحترم
 اختلاف وجهات النظر فيه هو الحق الذى لم يأت فيه من الله ولا من رسوله
 بيان واضح وفاصل . .

وما أكثر نماذج الحق الذى ترك الله للناس أمر كشفها ، وما أكثر
 الحقائق التى تتطلب آراء الناس لتظهر وتبين . . !
 وعند « عمر » أن إبداء الراى من حق كل فرد ، ذكر وأنثى ، كبير
 وصغير ، وليس من حق الصفوة . أى صفة . . .
 ذلك لأنه ينظر حوايه ، فيرى امبراطوريات تهدم ، وعروشاً تنهار ،
 وشعوباً ذليلة ، تصحو وتنحرر . .

ثم ينظر . . بيد من يتم هذا العمل الجليل . . ؟
 إنه يتم بأيدي الرجال العاديين . . الأميين والفقراء والبسطاء الذين
 آمنوا « بمحمد » واتبعوا النور الذى أنزل معه . . هؤلاء إذن ، هم قوام الحياة
 الجديدة . . ! !

فإذا كنا نحترم سواعدهم التى تضرب وتبنى ؛ فلا بد أن نحترم كلماتهم
 التى تُقال . . وإذا كنا نطلب تأييدهم وتعصيدهم ، فلا بد أن نتقبل
 مشورتهم ونقدهم . . ! !

وما داموا هم الذين يحملون العبء أولاً وآخرًا ، فليس من حق حاكمهم



أن يفرد دونهم باتخاذ قراراته ورسم خططه ، وبالتالي ليس من حقه أن يتجاهل حقهم في أن يقولوا : لا . . ما دام يحتاج إليهم في يوم يقولون فيه : لبيك . . ! ! !

يدور ذات يوم حوار بينه وبين واحد من الناس .
ويعمسك الآخر برأيه ، ويقول للأمير المؤمنين : اتق الله يا عمر . !
ويكررها مرات كثيرة . .

ويزجره أحد الأصحاب الجالسين قائلاً : صه ، فقد أكرثت على أمير المؤمنين .

ولكن أمير المؤمنين يقول له : « دَعَّهُ » فلا خير فيكم إذا لم تقولوها . .
ولا خير فينا إذا لم نسمعها . . !

أجل ، لا خير في الناس إذا لم يقولوا ما يرونه حقاً ، ولا خير في الحاكم إذا لم يسمع منهم ويضع إليهم . .

* * *

ولكن ليست المشكلة مشكلة قول وسمع . .
إنما هي أولاً مشكلة الثقة والطمأنينة اللتين ترفعان من مستوى الشجاعة في إبداء الرأي . . ومستوى العدالة في تقبله . . .

وهذه عظمة « عمر » في هذا المقام ، وهي كعظمته في كل مقام . . .
عظمته في إدراكه أن الشجاعة هي سر الحرية وجوهرها . . وأن
الناس إذا فقدوا شجاعتهم ، فقدوا بالتالي كل ما يؤهلهم للاستقامة والتقدم
والتطور الصاعد السديد . .



وعندئذ قالويل لهم ، والويل للحاكم معهم . .
إن الاثنين معاً . الحاكم والشعب ، بتخليهما عن الشجاعة في إبداء
الرأى وتقبله . قد أزمعا الانسحاب من الحياة . . ! !

، ، ،

ألا هنيئاً لأمة يقودها هذا القوى الأمين « عمر » . . .
هذا الرجل الذي برى من آفة الحكم وآفة الحكام في كل زمان -
ألا وهي الحرص على أن تكون كلمتهم العليا . .
برى « عمر » من هذا ، وتفوق عليه . .
وكانت الكلمة العليا عنده للحق أئى يكون .
ولقد يقضى قضاء ، ويُبرم أمراً ، فيعارضه صاحبه ، ويقول للإمام
العادل . والخليفة الأمين : ليحكم بينى وبينك آخرون . .
فلا وربك لا يأل « عمر » ولا يتأى ، بل يرحب في غبطة ، لأنه
سيجد عوناً على الحق إن كان مُحققاً ، وهُدًى إلى الصواب إن كان مخطئاً . . !
لقى العباس يوماً وقال له :
- لقد سمعت رسول الله قبل موته يريد أن يزيد في المسجد ، وإن
دارك قرية من المسجد فأعطنا إياها نزدها فيه . وأقطع لك أوسع منها . .
قال العباس : لا أفعل . .
قال عمر : إذن أغلبك عليها . .
فأجابه العباس : ليس ذلك لك ، فاجعل بينى وبينك من يقضى
بالحق .

قال أمير المؤمنين : من تختار . . ؟ ؟



قال العباس : حذيفة بن اليمان ..

وبدلاً من أن يستدعى أمير المؤمنين إلى مجلسه « حذيفة » انتقل هو والعباس إليه .

أجل ، فحذيفة الآن يمثل سلطة أعلى من سلطة الخليفة نفسه . إنه سيقتضى ويفصل بين الخليفة ، وواحد من المسلمين .. بين الدولة : وفرد من المواطنين .. شيء تشبهه - لو استقامت على الطريقة - مجالس الدولة في عصرنا هذا ..

وأمام حذيفة بن اليمان جلس « عمر » ، والعباس . وقصاً عليه الخلاف الذي بينهما .

فقال حذيفة : سمعت أن نبي الله « داود » عليه السلام أراد أن يزيد في بيت . دس فوجد بيتاً قريباً من المسجد ، وكان هذا البيت لیتيم ، فطلبه منه فبني . فأراد « داود » أن يأخذه قهراً ، فأوحى الله إليه : « إن أنزه البيوت عن الظلم هو بيتي » فعدل داود وتركه لصاحبه ..

فنظر العباس إلى « عمر » وقال : ألا تزال تريد أن تغلبني على داري . ؟ قال عمر : لا ..

قال العباس : ومع هذا ، فقد أعطيتك الدار تزيدها في مسجد رسول الله .. !!

* * *

أغلب الظن ، أن « عمر » لو رأى انبهارنا اليوم بديمقراطيته وإنسانيته وعظمته . لرمقنا بنظرة ملؤها الدهش والعجب ..

فهو لم يكن في كل روائعه هذه ، يحسب أنه يأتي أموراً غير عادية ،



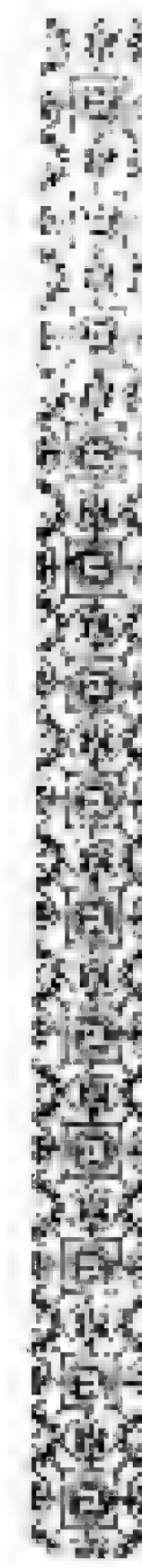
وهذا هو « جواهر » العظيمة . .
عظيمة رجل يدعو بالرحمة لمن يُهْدِي إليه أخطاءه . .
لمن يقول له : لا . . . يا عمر . . !
ألا حياً الله أمير المؤمنين .
وتحية طيبة للبشرية التي أنجبت ، وللمدين الذي ربّاه . . . ! ! !



الفصل الخامس

لَسْتُ بِالْحَبِّ، وَلَا الْحَبُّ يَجِدُنِي

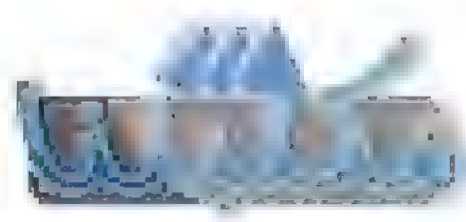




في مستوى فطرته ، وإيمانه ، ومسئوليته ، كان ذكاؤه وكانت فطنته .
ولقد لخصت أم المؤمنين « عائشة » رضي الله عنها حذقه الفائق
فقالت :

« كان والله أحوذياً ، نسيج وحده ، قد أعدَّ للأمور أقرانها » . .
ولقد أفاء الله عليه الكثير الغدق من الفهم والحكمة « يؤتي الحكمة
من يشاء ، ومن يوت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً » .
و « عمر » أهل لفضل الله وعطائه وخيره ، فليس في حياته كلها شيء
له . إنها كلها مكرسة لله . منذورة لطاعته وخدمة خلقه .
وذكاؤه سناد للحق ، لا للباطل .

وهو ينبع من مسئوليته ، ويعمل وفقها .
وهو ذكاء الفطرة السوية ، والتجربة اليقظي ، ومن ثم فهو لا يعرف
المراوغة ، ولا المماراة . . إنما يتحرى الحق ، وينفذ إلى اللباب المستير
في مثل لمح البصر أو هو أقرب . . ! !



وحفظه من فقه الإسلام خاصة ، حظ عظيم جدّ عظيم

يقول عبد الله بن مسعود :

« كان عمر أعلمنا بكتاب الله . وأفقهنا في دين الله » .

وكان أصحابه يتحدثون بأنه ذهب وحده بتسعة أعشار العلم .

والحق أن توقّد ذكائه ، وخصوبة قريحته لا يخفيان في أى تصرف

من تصرفاته ، أو كلمة من كلماته . . .

وكما لا يزهو « عمر » بسلطانه ، فهو لا يزهو بعقريته . . تلك العبقريّة

التي لو شاء أن يخوض بها معارك الذكاء لربحها جميعاً ، غير أنه لم يُعْطَ

نعمة الذكاء كما يرى ، إلا ليبصر الحق في ضياء هذا الذكاء ، وليتجنب

به أحاييل المكر السيئ التي ينشرها دائماً أعداء الوضوح وخصوم

الحق . .

كثيراً ما كان يقول رضى الله عنه :

« لست بالخَبِّ ، ولا الخَبُّ يخدعنى » . . . !

وهى عبارة تصور طبيعة نبوغه وذكائه .

فهو ليس ذكاء عُدوانياً . . ولا ذكاء مُراوغة وختل . .

ليس ذكاء هجوم . بل . . . ولا ذكاء مقاومة . .

إنما هو ذكاء تفوق ، يتفجر من شخصية متفوّقة ، ويعمل في خدمة

مبادئ متفوّقة . .

هو إذن ليس ذكاء معارك ، بل ذكاء بطولات . . .

وليس ذكاء مدرسياً ، بل ذكاء خلافاً مُبدعاً . .

وهذا أيضاً من آيات هذا العقل الذى يؤمن بالنص ويدعن للأثر .

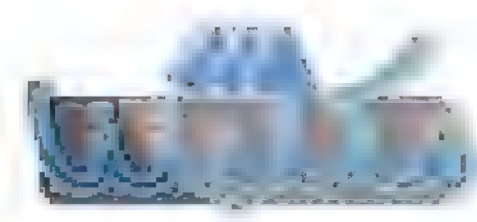
ثم هو مع هذا صوّال جوّال . يستشرف الغيوب ويكاد أحياناً يسبق الوحي ،



فما جعل رسول الله يقول مشيداً بهذه الفطنة الخارقة :
« إن الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه » . .

• • •

يقول للرسول يوماً :
يا رسول الله . أليس هذا مقام إبراهيم أينما . . ؟
يقول الرسول : نعم .
فيقول عمر : فلوانخذت منه مُصَلًى .
فما هي إلا أيام حتى ينزل الوحي بالآية الكريمة : « وانخذوا من مقام إبراهيم مُصَلًى » .
ومثل هذه الواقعة كثير ، حيث كانت تنبثق من عقله المضيء ، وبصيرته الذكية فكرة ، أو أمنية ، فيتناول بها الوحي بعد قليل .
من أجل هذا قال الرسول فيه :
« لو كان بعدى مُحدِّثون ، لكان عمر » . .
ومن أجل هذا جعله الرسول مصدراً من مصادر التشريع حين قال لأصحابه :
« إني لا أدري ما مقامي فيكم ؛ فاقتدوا باللذين من بعدي ، أبي بكر وعمر » . .
ودكاء « عمر » عميم واسع ، ونظرته الحصيفة تُجَلِّي كل غامض ، وتنفذ إلى كل غور بعيد . .
ورأيه في شيء يسير ، كراهيه في أمر خطير - كلمات وجيزة ، وأحكام مستوعبة . .



وله فقه عظيم بطبائع الناس . . . كفهه العظم بأحداث الدنيا
وأسرار الحياة . . . !!!

كان يقول : « الناس بزمانهم ؛ أشبه منهم بآبائهم »
ويقول : « ما من أحد عنده نعمة ، إلا وجدت لها حاسداً . . . ولو كان المرء
أقوم من القدح . لوجدت له غامراً » . . . !!!
أحكام وجيزة ، لكنها عميقة ، تركز فيها حكمة « عمر » وعبقريته ،
ونخبته العميقة بنفس الإنسان .

وإنه ليضع الناس في ميزان ذكي قويم فيقول :
« أحبكم إلينا قبل أن نراكم أحسنكم سيرة ، فإذا تكلمتم فأبينكم
منطقاً ، فإذا اخترناكم فأحسنكم فعلاً » . . .

والمظاهر العابرة ، لا تكفي عنده لتكوين أحكام عن الآخرين .
يسمع واحداً يُطرى آخر ويمتدحه قائلاً ، إنه رجل صدق
فيسأله عمر : هل سافرت معه يوماً . . ؟
يقول الرجل : لا

- هل كانت بينكما خصومة يوماً . . ؟
- لا . . .
- هل ائتمنته يوماً على شيء . . ؟
- لا . . .

فيقول عمر : « إذن لا علم لك به . لعلك رأيت يرفع رأسه في المسجد
ويخفضه » . . . !!!

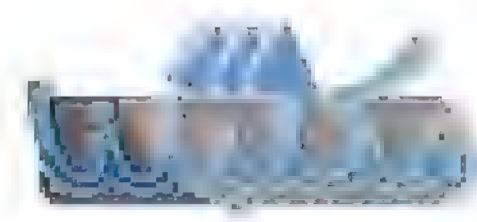


هذا إمام من أئمة التقى والورع والهدى ، ثم لا يرى رفع الرأس وخفضه في المسجد كافياً للثقة بمن يفعل هذا ، ، لا تهويناً لشأن العبادة ، ولكن إحاطة بأسرار النفس الإنسانية وحسن فهم لتياراتها الخافية . .
إن ذكاء « عمر » لا يأتي الأمور من بعض زواياها ، إنما يكشفها جميعاً ، ويستوعبها حتى آخر نماذجها واحتمالاتها . .

فهو في معرفته بالناس . لا يكتفى بتمحيص جانب العبادة فيهم ، على الرغم من علوم مكانة العبادة والعابدين عند « عمر » ، إنما يُطل على الشخصية كلها ، لأن العبادة أيضاً في مفهومها السديد عند « عمر » ، تعني استواء الشخصية الإنسانية واكتمالها . .
من أجل هذا ، كان يشكو كثيراً من سذاجة التقى ، ومقدرة غير التقى . .

وما كان يرى السذاجة والغفلة من خصائص العبادة والتقوى . بل التقوى عنده قوة وطهر . وسعة حيلة ، وتَفُوق . .
والحياة لديه ليست غفلة صالحة . بل هي تجربة ناجحة ، وميراث أمين . تحدث الناس عنده يوماً عن رجل وذكروه بخير فقالوا : إنه لا يعرف الشر أبداً . .

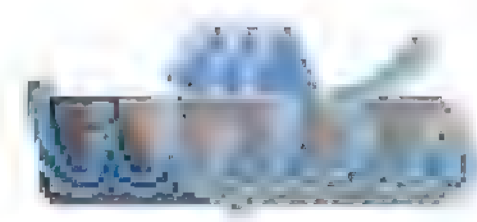
فقال « عمر » ذاك أجدر أن يقع فيه . .
ليس معنى هذا طبعاً أن ارتكاب الشر ضروري لمعرفة ، إنما معناه أن يكون الإنسان بصيراً بالشرور حتى لا تغزوه متنكرة في ثياب الخير . .
ويدرك « عمر » كذلك بفطنته المتألقة أن الفضيلة ليست انسحاباً من الحياة حذر الفتن . بل هي مجابهة الحياة ومغالبة الفتنة .
وفي هذا يُسأل : أيهما أذكى وأفضل - رجل لا يأثم لأن نفسه لا تشتهي



الإثم ، أم رجل تشبى نفسه الإثم ولا يَأثم . .
 فيجيب « عمر » الحضيف الأملح : « الذين يشتهون المعصية ،
 ولا يعملون بها ، أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى ، لهم مغفرة ؟
 وأجرٌ عظيم » . . . ! !

• • •

وتراحب أبعاد هذا الذكاء وهذا الفقه ، حين يواجهان مشاكل
 لحياة والناس .
 تُعرض عليه قضية يُفتي فيها . : وبعد حين ، تعرض عليه قضية
 مماثلة لتلك ، فيفتي فيها فتوى مغايرة . . فإذا سئل عن سر هذا التفاوت
 قال : ذاك على ما قضينا ، وهذا على ما نقضى . .
 إن ظروف القضيتين مختلفة ، وإن تماثلت الوقائع .
 وعمر الفقيه العبقري ، لا يحمل داخل عقله فتاوى كالقوالب الجامدة ،
 إنما يحمل فهماً يتحرك في كل الجهات . ويدرك ما لتباين الظروف وتغاير
 الأسباب من تأثير في الحادثة ، وتأثير في الحكم . .
 ولا شيء يفوق ذكاء « عمر » ، سوى جرأة هذا الذكاء . . ! !
 فنراه وهو الذي كان يتحرى التزام النص ، ومتابعة الرسول عليه السلام .
 يعلن إنهاء حكم شرعي ، مات الرسول وهو نافذ قائم ، ومات أبو بكر وهو
 نافذ قائم ، ولا يزال منطوق هذا الحكم آية تُتلى في كتاب الله . . . ! !
 هذا الحكم ، هو تخصيص جزء من ضريبة الزكاة للمؤلفة قلوبهم
 والمؤلفة قلوبهم جماعة دخلوا الإسلام باقتناع ضعيف ، أو بغير اقتناع .
 ففرض القرآن لهم في بيت المال حظاً يأخذونه من الزكاة . تألفاً لهم ، حتى



لا ينصرفوا عن الدين قبل أن يذوقوا حلاوة الإيمان فيقبلوا عليه راغبين موقنين . .

قلّب « عمر » وجوه الرأى فى هذا الشأن ثم قال :

« لقد كان رسول الله يعطيهم ، والإسلام يومئذ ضعيف . . أمّا اليوم فقد أعزّ الله دينه وأعلى كلمته ، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ، ولن يتسع هذا الدين إلا لمن يدخله راغباً مؤمناً . »

إن هذا الموقف وحده يرتفع إلى أعلى مستويات الذكاء الإنسانى ليس لما يتضمن من حسن التعليل ، بل لما يتضمن من شجاعة التفكير . فكثيرون يستطيعون أن يدركوا ما أدرك « عمر » من حكمة التشريع فى مثل هذه الواقعة ، لكن « عمر » وحده هو الذى يستطيع ذكاؤه الحاسم أن يطور هذا التشريع ، لا سيما إذا كان مقرأً بآية قرآنية لم تُنسخ . وعمل للرسول لم يُنقض . . الحق أن أعمق رؤى البصيرة ، وأعمق أسرار الشريعة ، قد التقت لقاء سعيداً فى وعى هذا الرجل الراشد الأمين . . !

ولقد أشاد الرسول بهذه النعمة التى أفاءها الله على « عمر » . فيروى البخارى ومسلم رضى الله عنهما ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :
- « بينما أنا نائم ، إذ رأيت قدحاً أتيت به فيه لبن ، فشربت منه حتى إني لأرى الرىّ يجري فى أظفارى ، ثم أعطيت فضلى عمر بن الخطاب . . قال أصحاب الرسول ، فماذا أولّته يا رسول الله ؟ قال : العلم . »

» » »

يُجاء إليه بمسلم ارتكب ما يوجب الحد ، ويشهد ثلاثة شهادة تدينه ، ولم يبق إلا شهادة الرابع ، ثم يصير الحد عقاباً محتوماً . .



ويُرسل « عمر » يستدعي الشاهد . . ولا يكاد يراه مقبلاً حتى تأخذه
رهبة . . وحين تقترب خطاه : ينظر إليه أمير المؤمنين ويقول : « أرى رجلاً
أرجو ألا يفضح الله به واحداً من المسلمين » . .
ويقدم الشاهد ، ويقول : لم أَر شيئاً يوجب الحد . .

ويتنفس « عمر » الصَّعداء . . ! !

ويأتيه رجل يسعى ذات يوم ظاناً أنه يحمل إليه بشري . فيقول يا أمير
المؤمنين . رأيت فلاناً وفلاناً يتعانقان وراء النخيل . فيمسك « عمر »
بتلابيه ، ويعلوه بمخففته . ويقول له بعد أن يُوسعه ضرباً : « هلاً سترت
عليه ، ورجوت له التوبة ، فإن رسول الله قال : من ستر على أخيه ستره الله
في الدنيا والآخرة » ! !

هذا رجل معه من الورع ما يستهجن به الخطأ الأخلاقي . ولكن
معه من الفطنة ما يُقدَّر به ظروف هذا الخطأ ، ومعه من الفقه ما يؤدي به
حق الورع وحق الفطنة معاً . . . ! ! !

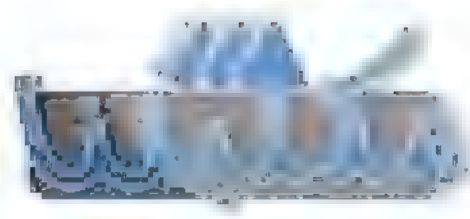
وإنه ليوصي الناس بهذا الفقه العظيم فيقول :

- « هكذا فاصنعوا . . إذا رأيتم أخواً لكم زلَّ زلَّةً فسددوه ووقفوه .
وادعوا الله أن يتوب عليه ، ولا تكونوا عوناً عليه للشيطان » . .

إن أمير المؤمنين شديد الوطأة . شديد البأس . ولكن الفهم الشديد
يضي كل مواقفه ، وهو يقضي بذكائه لا بعواطفه . . فصحيح أنه ينفر من الإثم ،
ولكنه يُمحِّص ظروف اجتراحه ثم يحبس خبير . ويضع القاعدة الذهبية
التي تقول :

« لأن أعطل الحدود في الشبهات ، خير من أن أقيمها في الشبهات » . . !

يأتيه يوماً رجل يستفتيه قائلاً :



- إن ابنتي كانت قد أصابت حداً من حدود الله . وأخذت الشفرة لتذبح نفسها ، فأدركناها وقد قطعت بعض أوداجها فداويناها حتى برئت .
ثم تابت بعد توبة حسنة . وهي اليوم تُخطب إلى قوم ، أفأخبرهم بالذي كان . . . ؟

فيجيبه عمر ذو الورع الذكي ، والذكاء الورع . .
- « اتَّعَمَدَ إلى ما ستره الله فتبديه ؟ والله لئن أخبرت بها أحداً من الناس لأجعلنك نكالا لأهل الأمصار ، اذهب وأنكحها نكاح الغفيفة المسلمة . . . ! !

• • •

وأمر المؤمنين لا يكون أحكاماً جزئية مُبْتَسَرة . بل تجيء أحكامه دائماً شاملة مستوعبة . ولا يصرف بصيرته عن الواقع ، بل يركزها عليه ، ويحيط به ، ويجعله من مصادر تفكيره الرشيد . .

• في إحدى الليالي ، وقد خرج عاساً في المدينة ، ينفض الليل عن الكروب المخبوءة ، سمع سيدة تشكو بئها وحزنها وتقول :
تطاولَ هذا الليل ، وازورَّ جانبه وليس إلى جنبي حليلٌ أُلَعيه
فوالله لولا الله لا رب غـيـره لزلزل من هذا السرير جوانبه
مخافة ربي ، والحياء يصدني وأكرم بعل أن تُنال ركائبه
ثم قالت : أهكذا يهون على « عمر » وحشتنا ، وغيبة رجلنا عنا . . ؟
ويتبين « عمر » أن زوجها مجند في أحد جيوشه . .
وعند الصباح يذهب إلى ابنته حفصة ويسألها :

- يا حفصة . . كم تصبر المرأة عن زوجها . . ؟ !



فتجيبه : تصبر شهرا ، وشهرين ، وثلاثة ، وينفذ مع الشهر الرابع صبرها ..

فيسنّ من فوره قانوناً ، بألا يغيب في الجهاد جندي متزوج أكثر من أربعة أشهر . . ويرسل إلى زوج السيدة يستدعيه من فوره . . ! !
 • ويسمع شيخاً كبيراً يبكي في شعر جزل ولده الوحيد الذي طال غيابه عنه . . ويسأل « عمر » فيعلم أنه هو الآخر في أحد جيوش المسلمين ، فيستدعيه فوراً ثم يسن قانوناً ألا يخرج إلى الجهاد من له أبوان كبيران إلا بعد إذهما . . ! !

ذكاء يعمل على الطبيعة ، ويستمد من واقع الناس والحياة مادة تفكيره . .

• ولقد درج العرف والقانون على اعتبار الاعتراف سيد الأدلة . وهذا حق ، ولكن أمير المؤمنين يقرر بفطنته أنه ليس كذلك دائماً . ولا بد لكي يؤخذ الاعتراف كدليل ، ألا يُعزل عن الظروف التي تكتنفه وتحيط به ، فلربما يحىء نتيجة خوف أو إكراه ، وعندئذ يفقد قيمته يقول عمر :

- « ليس الرجل بمأمون على نفسه إن أجعته أو أخففته ، أو حبسته أن يُقر على نفسه » . . ! !
 • وهو يأمر قواد جيوشه ألا يُنزلوا بجندى عقاباً حتى « يَطلُّعوا من الدَّرب قافلين » . . ! !

إذا ارتكب جندي خطأ ما ، فلتحقق الواقعة ، ولتحدد المسؤولية ، ولكن توقيع الجزاء والعقوبة ، يظل مُرجأ حتى يُغادر الجندي بلاد الأعداء ، ويعود إلى وطنه . .



ويعلل أمير المؤمنين قراره هذا ، بالخوف من أن يلحق الجندى بالأعداء
ويأوى إلى صفوفهم إذا أنزل به العقاب هناك . . . ! !
إن ذكاءه التشريعى يتجلى فى هذه الوقائع اليسيرة التى ذكرناها تجلياً
يكشف عن روح الفهم النافذ والاستعداد العظيم عند ذلك الرجل الملهم
الرشيد .

• وإنه ليجاء إليه يوماً بغلمان صغار السن سرقوا ناقة رجل من
مُزينة . . ؟ فلا يكاد يراهم صفر الوجوه ، ضامري الأجسام حتى يسأل :
مَنْ سَيِّد هَؤُلَاءِ . . ؟

قالوا : حاطب بن أبى بلتعة . .

قال : إلىَّ به . .

فلما جاء حاطب ، سأله : أنت سيد هؤلاء . .

قال : نعم يا أمير المؤمنين .

قال عمر : لقد كدت أنزل بهم العقاب ، لولا ما أعلمه من أنكم
تدثبونهم ، وتجميعونهم - لقد جاعوا فسرقوا ، ولن ينزل العقاب إلا بك . . ! !
ثم سأل صاحب الناقة :

- يا مُزْنَى ، كم تساوى ناقتك . . ؟ ؟

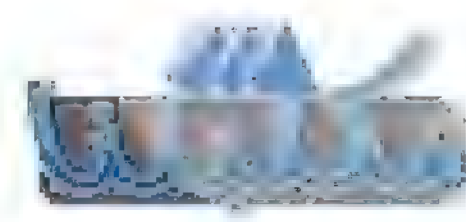
قال : أربعمائة . .

قال عمر لحاطب : اذهب فأعطه ثمانمائة . .

ثم قال للغلمان : اذهبوا ، ولا تعودوا لمثلها . . ! !

• • •

وحين نتبع أفكار « عمر » فى كلماته التى يصوغها فى أحسن تقويم ،



نرى الجزالة ، والوضوح ، والمعاني الكبيرة ، والأهداف النبيلة . تلتقى لقاء سعيداً في كل كلمة تنفرج عنها شفتاه . . .

حين ولي الخلافة وقف يقول لقومه :

- « لن يغير الذي وليت من خلافتكم شيئاً من خلقي ، إنما العظمة

لله وحده ، وليس للعباد منها شيء » . . . ! ! !

ويحدثهم عن المال فيقول :

- « ألا إني ما وجدت صلاح هذا المال إلا بثلاث : أن يؤخذ

من حق ، ويعطى في حق ، ويُمنع من باطل . . . ألا وإنما أنا في مالكم هذا كوالى اليتيم : إن استغيت استعفت . . وإن افتقرت أكلت بالمعروف . »

ويقول في كلمات وضاء عذاب :

« من أراد أن يسأل عن القرآن ، فليأت أبا بن كعب . . ومن أراد

أن يسأل عن الفرائض . فليأت زيد بن ثابت . . ومن أراد أن يسأل عن

الفقه ، فليأت معاذ بن جبل . . ومن أراد أن يسأل عن المال فليأتني ؟

فإن الله جعلني له خازناً وقاسماً . .

« إني بادئ بأزواج رسول الله فمعطيهم . ثم المهاجرين الأولين

الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم ، ثم الأنصار الذين تبوءوا الدار والإيمان

من قبلهم ، ثم من أسرع إلى الهجرة أسرع إليه العطاء ، ومن أبطأ عن

الهجرة أبطأ عنه العطاء ، فلا يلومن رجل إلا مُناخَ راحلته » . . ! !

ويقول في توزيع الثروة :

- « إني حريص على ألا أدع حاجة إلا سدتها ما اتسع بعضنا لبعض ،

فإذا عجزنا تأسينا في عيشنا حتى نستوى في الكفاف » . . . ! !



وحين نستعرض كتبه لقواده وولاته نرى كيف كان ذكاؤه يبلغ غاية
الرشد في كل شأن من الشؤون . .

يكتب لأبي موسى الأشعري موضحاً له منهج القضاء الذي ينبغي
أن ينتهجه فيقول :

« من عبد الله أمير المؤمنين ، إلى عبد الله بن قيس . . سلام عليك . .
« أما بعد : فإن القضاء فريضة محكمة ، وسنة متبعة ، فافهم إذا
أدلى إليك ، وأنفذ إذا تبين لك ، فإنه لا ينفع حق لانفاذه . .
« آس بين الناس في مجلسك ووجهك ؛ حتى لا يطمع شريف في
حيثك ، ولا ييأس ضعيف من عدلك . .

« البيعة على من ادعى ، واليمين على من أنكر . .
« والمصلح جائز بين المسلمين إلا صلحاً أحل حراماً أو حرماً حلالاً . .
« ولا يمنعك قضاء قضيته بالأمس ، فراجعت فيه نفسك وهُديت
لرشدك أن ترجع إلى الحق : فإن الحق قديم لا يطله شيء . ومراجعة الحق
خير لك من التماهى في الباطل . .

« الفهم ، الفهم فيما تلجلج في صدرك مما ليس في كتاب ولا في سنة ،
واعرف الأشباه والأمثال ، ثم قس الأمور عند ذلك ، واعمد إلى أحبها إلى الله ،
وأشبهها بالحق فيما ترى . . . واجعل لمن ادعى حقاً غائباً أو بينة ، أمداً
ينتهي إليه ، فإن أحضر بينته أخذت له بحقه وإلا استحللت عليه القضاء ؛
فإن ذلك أنتى للشك . وأجلى للعمى : وأبلغ في العذر . .

« والمسلمون عدول في الشهادة بعضهم على بعض ، إلا مجلوداً في
حد ، أو مجرباً عليه شهادة زور ، أو ظنياً في ولاء أو قرابة ؛ فإن الله قد
تولى منكم السرائر ، ودراً عنكم الشبهات . .

« وإياك والقلق ، والضجر ، والتأذى بالناس والتنكر للخصوم في مواطن الحق التي يوجب الله بها الأجر ، ويحسن الذخر فإنه من يخلص نيته فيما بينه وبين الله تبارك وتعالى ، يكفّه الله ما بينه وبين الناس ، ومن تزين للناس فيما يعلم الله خلافه منه ، شأنه الله وهتك ستره وأبدى فعله ، فما ظنك بثواب عند الله في عاجل رزقه ، وخزائن رحمته ؟ والسلام .. ! ! !

• • •

ويدخل عليه وفد من المجاهدين كانوا يفتحون تكريت وجلولاء ، فيرى جسومهم ضامرة ووجوههم شاحبة ، فيسألهم عن سبب ضعفهم فيجيبونه بأنها وخومة البلاد ورطوبتها . . . فيكتب لسعد يأمره أن يحسن اختيار مكان يلائم الناس ، ويرسم له الطريق فيقول :

« ابعث سلمان رائداً ، وحذيفة ؛ فليرتادا منزلاً ليس بيني وبينكم فيه بحر ولا جسر ، وادع أبا الهياج بن مالك ، وأمره أن يجعلها مناهج - يعني شوارع - عرض كل منهما أربعون ذراعاً . . . وأخرى عرض كل منها ثلاثون ذراعاً . . . وأخرى عرض كل منها عشرون ذراعاً ، لا تضيق عن ذلك شيئاً . وأمره أن يجعل فيها أزقة ، الزقاق سبعة أذرع ، لا يضيق عنها شيئاً . . . !

• • •

ويكتب لسعد أيضاً ببعض توجيهاته العسكرية فيقول :

« ترفق بالمسلمين في مسيرهم ، ولا تجشمهم مسيراً يتعبهم ، ولا تقصر بهم عن منزل رفق ، حتى يبلغوا عدوهم والسفر لم ينقص قوتهم . . . وأقم



بمن معك في كل جمعة يوماً وليلة حتى تكون لهم راحة يُجِمُّون فيها أنفسهم
ويرمون أسلحتهم وأمتعتهم . .

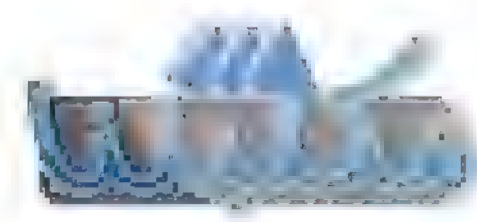
ثم يقول :

« وإذا وطئت أدنى أرض العدو فأدرك العيون بينك وبينهم ، حتى
لا يخفى عليك أمرهم ، واختر لهذا من تطمئن إلى نصحه وصدقه ؛ فإن
الكذوب لا ينفعك خبره وإن صدق في بعضه ، والغاش عين عليك وليس
عيناً لك . .

« وإذا دثت من أرض العدو ، فأكثر الطلائع ، وبث السرايا .
أما السرايا فتقطع أمدادهم ومرافقهم . وأما الطلائع ، فتبلو أخبارهم ،
وانتق للطلائع أهل الرأي والبأس من أصحابك . وتخبر لهم سوابق الخيل ؛
فإن لقوا عدواً كان أول ما تلقاهم القوة من رأيك ، واجعل أمر السرايا إلى
أهل الجهاد والصبر على الجلال ، ولا تخصّ أحداً بهوى فيضيع من رأيك
وأمرك أكثر مما تحبّ به أهل خاصتك ، ولا تبعث طليعة ولا سرية في وجه
تتخوف فيه ضيعة ونكايه ، فإذا عاينت العدو ، فاضمّ إليك أقاصيك
وطلائعك وسراياك » . . . ! ! !

ويكتب إليه أيضاً :

- « بلغني أنه فشالك ولأهل بيتك هيئة في لباسك ومطعمك ومركبك
ليس للمسلمين مثلها ، فأياك يا عبد الله أن تكون بمنزلة البهيمة التي مرت
بواد خصيب فلم يكن لها هم إلا السمن ، وإنما حثفها في السمن . . !
واعلم أن للعامل مرداً إلى الله ، فإذا زاغ زاغت رعيته ، وإن أشقى الناس



من شقيت به رعيته « . . . ! !

في هذه الرسائل أدلى « عمر » برأيه في مشاكل شتى ، في القضاء ،
وفي العمارة ، وفي الجهاد ، وفي أمانة الحكم . .
وفيها ، وبين سطورها تتألق بديهته ، ونبوغه . .

• • •

وحتى حين كان يعبر عن أفكاره في تبسط ودعابة ، كانت الحكمة
الذكية تملأ الكلمات والحروف . .

يمر يوماً بدار جديدة في أطراف المدينة ، فيسأل : دارٌ من هذه ؟
فيقولون : دار فلان . وفلان هذا واحد من ولاية عمر . .
فيقول : أبت الدراهم إلا أن نخرج أعناقها . . ! !
ويبصر يوماً نائحة تستجيش أحزان الناس وتمسح دموعها الكواذب
فيعلوها بمخففته . ويطردها ويقول : « إنها لا تبكي بشجونكم ، إنما تبكي
بدراهمكم . . ! ! »

ويسأل أحد أولاد « هرم بن سنان » الذي خلده شعره ، « زهير
ابن أبي سلمى » ، فيقول له أنشدني بعض مدح زهير أباك . فينشده . .
فيقول عمر : إن كان ليحسن فيكم القول . .
فيجيبه الرجل : ونحن والله . إن كنا لنحسن له العطاء . . .
فيقول عمر : قد ذهب ما أعطيتموه . . وبقى ما أعطاكم . . ! !
ذكاء ثاقب - يعبر عن نفسه بكلمات ثاقبة . . ! ! !

• • •

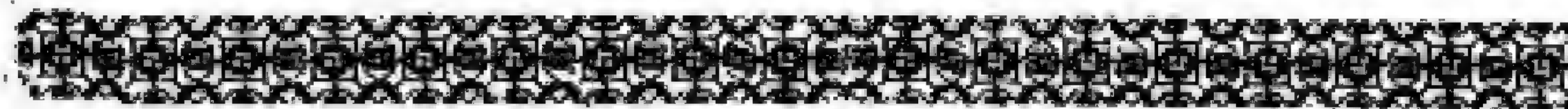


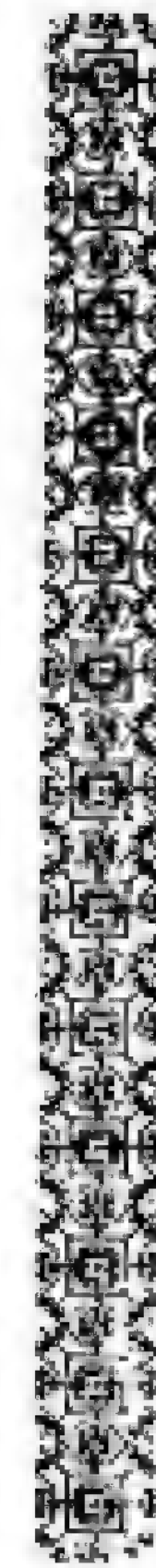
وبعد ، فالذكاء البشرى يقرن غالباً بالطموح الشديد ، والسعى
الدائب وراء المزيد من أمجاد الدنيا والعلو فيها . .
وهنا نلتقى بأبى خصائص ذكاء ابن الخطاب . .
لقد كان ذكاء رُهبانياً ، لا يعمل في خدمة صاحبه ، وإنما يعمل لله ،
ومع الله ، في سبيل الحق والخير والرحمة . . ! !
أجل ، كان ذكاء رجل أبواب . . من الله مأتاه . . وإلى الله مردّه . .
وفي سبيل الله نشاطه ، وتوقُّده ، ورؤاه . . ! !



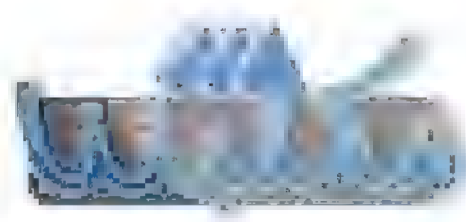
الفصل السادس

بَشْرَ صَاحِبِكَ بِغُلَامٍ





إذا اجتمعت هذه الفطرة السوية القوية ، وهذا الإيمان الوثيق بالله ،
وهذه الأمانة الكاملة في تحمل مسئوليات الوجود والحياة ، مع ذكاء ثاقب
رَحب ، فماذا يبقى من المكرّمات والعظائم ، حتى يكون الكمال الإنساني
قد تجسّد بشراً ، ونهض على ساقين . . ؟ ؟ !
هذا العدل ، وهذا الورع ، وهذا التفاني في الواجب ، وهذه الاستقامة
على صراط الحق ، والقِطنة التي لا يخذعها خيب . .
تلك الخصائص المثلى لم يأخذ « عمر » منها حظاً مجرد حظ ، بل
بلغ نهاياتها ، وتفوق على مستوياتها القياسية جميعاً . .
أجل ، إن الكمال الإنساني حين أراد أن يحقق وجوده المادى المحسوس ،
تجسّد في نماذج نادرة وباهرة من البشر . وإن أحد هذه النماذج العليا ،
لهو « عمر بن الخطاب » . . .
رجل كما رأينا ، عظيم . تمنى العظيمة نفسها أن تكون إحدى صفاته
وسماته . . ! !



على أن الصورة التي تتعلّأها له عبّر هذه الصفحات لم تستكمل
بعد ملامحها ، فلا يزال هناك مَلَمَح باهر مشرق أخاذ . .

صحيح أنه مائل في كل الملامح السالفة ، ولكنه بالنسبة إلينا ،
نحن الذين نقسم الموضوع لنحسن فهمه ولنطبق استشراف هذه العظمة
السامقة رويداً . لا يزال أمامنا هذا الملمح المظلل ، يجذبنا ويدعونا . .

فالرجل الذي ورّثه الله ملك كسرى وقبصر ، والرجل الذي كان
أصحابه يرقبون ابتساماته ترقب الأهلّة من طول كظمه شفّيته خوفاً من الله ،
ووقاراً له ، وفرقاً من مسئولياته أن يزلّ فيها ، أو ينوء بها . .
الرجل الذي خلق ليقود عالماً ، والذي رُزق طبيعة تقتلها الراحة ،
ويُغريها العمل بالعمل . .

هذا الرجل الشاهق ، الهادر ، الجياش ، كيف كان نهج حياته
تحت وطأة مسئولياته ، وإخباته ، وجيشان فطرته وطاقاته . . ؟
هل عقّده خصائصه هذه ، أم زادته وضوحاً . . ؟
هل اضطرته إلى الانطواء والتزمّت ، أم مكّنته من المجاوزة ومنحته
التفتح . . ؟ ؟

هناك قدر من التحفظ ، والصِّلَف ، تحمي به الزعامة المنتصرة
نفسها ، وتصون به هيبتها ، فهل أخذ «عمر» حظه المألوف من هذا ،
أم كان عنده بديل آخر دعم زعامته ، وإمامته ، وهيئته . . ؟ ؟
أجل ، كان هناك بديل يليق «بعمر» ، ولا يقدر عليه إلا واحد من
طراز «عمر» . .

كان هناك البساطة . . ! !
ولكننا نظلم البساطة عند «عمر» ، إذا قلنا إنها كانت بديلاً لشيء آخر .



فليس في أخلاق «عمر» ولا في خصائصه ما هو بديل . . إنما هي جميعاً ذوات أصالة مطلقة . و«عمر» نفسه ، هو وطنها وجوهرها . . .
 أجل ، إن الشجاعة ، وإن العدل ، وإن الورع ، والاستقامة ،
 كلها أخلاق إنسانية يحمل أمانتها بنو الإنسان ، وتوجد بنسب متفاوتة
 مع الناس جميعاً - ولكن شجاعة «عمر» . وعدله ، وورعه ، واستقامته ،
 شيء نابع من «عمر» ، ومختص به . . وما كان سيوجد قط ، لو لم يوجد
 «عمر» . . ! !

لقد أدت خصائص «عمر» بمعونته دورها الفريد الفذ الذي جعلها
 متميزة كأنها من جوهر آخر فريد . هو «عمر» نفسه . .
 وهذه عظمة الرجل . . إنه لم يأخذ من الفضيلة شيئاً وطابعها ،
 بل هو الذي منح الفضيلة طابعه وسياها . . ! !

من أجل هذا ازدهرت الفضائل في نفسه وسلوكه ، ازدهار شخصيته . .
 واكتملت لديه الفضائل جميعاً واتحدت في كل واحد ، هو «عمر» . .
 وإذا كنا نُجزئها ونقول ، عدل «عمر» ، ورع «عمر» ، أمانة «عمر» ،
 فطنة «عمر» ، «قوة عمر» . . فإنما نفعل هذا لنعلم أنفسنا . .
 أجل : إننا نُقسم طريقنا لنقدر على استيعابه ، ونقسم المادة التي
 بين أيدينا لنتمكن من تحصيلها . .

أما فضائل أمير المؤمنين ، فلا تتجزأ في مجال العمل . كما لا تتجزأ
 في ميزان التقييم . . ذلك لأنها ليست أوسمة منوطة بصاحبها . بل هي
 صاحبها نفسه ، وهي الرجل الذي تنبع منه وتنتمي إليه . . هي ،
 «عمر» . . ! !



ورجل هذا شأنه ، رجل مترع بالعظمة وبالتفوق إلى هذا الحد لا يمكن أن يستهويه التمايز ، ولا يمكن أن يجد راحة نفسه وغطتها إلا في البساطة المتناهية ، وفي الحياة « بين » الناس لا « فوق » الناس . . .

فهو يجلس حيث انتهى به المجلس . ليس له مكان صدارة يختص به نفسه . وهو ينام حيث يدركه النوم ، فوق الحصير في داره ، أو فوق الرمال تحت ظل النخيل . . . ! ! وهو يأكل ما يجد ، وما يُقيم الأود لا غير . . شريحة من اللحم المقدد ، أو شريحة من الخبز مبللة بالزيت ، مُتبلة بالملح . . ! ! وهو سعيد ، حين يسمع امرأة ، أو غلاماً . يناديه : يا عمر . .

وهو في سعادة لو علمها ملوك الأرض لحسدوه عليها ، حين يرى عجوزاً تحمل مِكتلاً يؤودها حمله . فيتقدم منها ويحمله عنها بعض الطريق ، ويضحك ملء نفسه ، وهو يسمعها : تقول له شاكرة :

أثابك الله الخير يا بني . . إنك لأحق بالخلافة من عمر . . ! ! !

• • •

ذات ليلة خرج في جولة من جولاته التي كان يخرج فيها وحيداً ، والناس نيام ليظمن على قومه ويئلو أحوالهم ، وينقض الليل عن حاجاتهم . . ! وعند مشارف المدينة رأى كوخاً ، ينبعث منه أنين امرأة ، فاقرب يسعى ، ورأى رجلاً يجلس بباب الكوخ ، وعلم منه أنه زوج السيدة التي تئن . وعلم أنها تعاني كُرب المخاض ، وليس معها أحد يُعينها ؛ لأن الرجل وزوجته من البادية وقد حطاً رحالهما هنا وحيدين ، غريبين . .

ورجع « عمر » إلى بيته مسرعاً ، وقال لزوجته « أم كلثوم » بنت الإمام

على . .



- هل لك في مَثُوبَةٍ ساقها الله إليك . . ؟

- قالت : خيراً . . ؟

قال : امرأة غريبة تَمَخَّضَ ، وليس معها أحد .

قالت : نعم ، إن شئت . .

وقام فأعد من الزاد والماعون ما تحتاج إليه الوالدة من دقيق وسمن ،
ومزق ثياب يُلَفُّ فيها الوليد . .

وحمل أمير المؤمنين القِدْرَ على كتف ، والدقيق على كتف ، وقال لزوجته :
اتبعيني . .

ويأتيان الكوخ ، وتدخله « أم كلثوم » زوج أمير المؤمنين ، لتساعد
المرأة في مُخاضها . .

أما أمير المؤمنين ، فيجلس خارج الكوخ وينصب الأثافي ويضع
فوقها القدر ، ويوقد تحتها النار . ويُنضج للوالدة طعاماً ، والزوج بِرُمَقَه
شاكراً . . . ولعلَّه كان يحدث نفسه هو الآخر بأن هذا العربي الطيب أولى
بالخلافة من « عمر » . . ! !

وفجأة صَدَحَ في الكوخ صراخ الوليد . . لقد وضعت أمه بسلام ،
وإذا صوت « أم كلثوم » ينطلق من داخل الكوخ عالياً :

- يا أمير المؤمنين ، بَشِّرْ صاحبك بغلام . . ! !

وبفهم الأعرابي من الدهش ، ويستأخر بعيداً على استحياء ، ويحاول
أن ينطق الكلمتين - أمير المؤمنين - ولكن شفثيه لا تقويان على الحركة
من فرط ما أفاءته المفاجأة من سعادة ، وطرافة ، وذهول . . ! !

ويلحظ « عمر » كل هذا ، فيشير للرجل : أن ابق مكانك ، لا تُرَعْ . .
ويحمل أمير المؤمنين القِدْرَ . ويقترب من باب الكوخ منادياً زوجته . .



- خذى القدر يا أم كلثوم . وأطعمى الأم وأشبعها . . .
وتُطعمها « أم كلثوم » حتى تشبع ، وترد القدر إلى « عمر » بما بقي
من طعام ، فيضعها « عمر » بين يدي الأعرابي ، ويقول له :
- كل واشبع ، فإنك قد سهرت طويلاً ، وعانيت كثيراً . . .
ثم ينصرف هو وزوجته ، بعد أن يقول للرجل :
- « إذا كان صباح الغد فائتني بالمدينة ، لأمر لك من بيت المال
بما يصلحك ، ولنفرض للوليد حقه . . . ! !
رضي الله عن « عمر » ، وإنه لَحَقُّ ، ما قاله الرسول عنه : « لم أرَ
عبقرياً يقرى قرينه » ، فهو بالمعيتة وبصيرته . قد عرف حقيقة السعادة ،
وحقيقة العظمة في دنيانا هذه ، فأخذ منهما بالمكيال الأوفى .
ألا ورب « عمر » . إن مشهداً واحداً كهذا الذي رأيناه لخير مما طلعت
عليه الشمس وغربت - من عُروش وتيجان ، وزُخرف وصُلف . . . ! !
أى تواضع وأية بساطة ، وأي حنان ومودة تنساب من نفس هذا الإنسان
الذى رفع الله به من قَدَر الحياة . . . ؟ !
أين مظاهر السلطان ، حتى المشروع والضرورى منها . . . ؟ !
لكن « عمر » لم يكن رجلَ سلطان ، لأنه فوق السلطان . وهو لا يستعير
عظمته من شيء خارج نفسه . إنما يهبُ العظمة لكل ما يقترب منه ويتصل به .
وهو لا يتكلف البساطة ، بل يتنفسها . . . ويوظفُ أكنافه في غبطة
لل كبير والصغير . . . ! !
يمر يوماً في المدينة بغلمان يلتقطون البلح من أفنية النخل ، فلا يكاد
الغلمان يبصرونه حتى يتفرقوا ، ويذهبوا بعيداً ، غير غلام واحد ظل في مكانه
لا يريم . . .



ويقرب منه « عمر » ، فَيَاكِرُهُ الغلام القول :

– « يا أمير المؤمنين ، إن هذا البلح مما ألقته الريح » . . . ! !

فيقول له عمر : « أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْهِ . فَإِنْ مَا تَلْقِيهِ الريح لَا يَحْتَقِ عَلَى »

وينظر البلح ويفحصه ثم يقول للغلام : صدقت . .

وتتهلل أسارير الطفل ، ويقول لأمير المؤمنين في براءة ،

– « أترى هؤلاء الغلمان الذين هناك ؟ ؟ إنهم ينتظرون أن أذهب

وحدى فيغيروا على ويأخذوا ما معي » . .

ويضحك عمر . وَيُرَبِّتُ عَلَى كَتِفِهِ ، ويقول للغلام : امض معي ،

وسأبلغك مَأْمَنَكَ ويأخذ بيده ويسير إلى جانبه حتى يُشَارِفَ داره ! ! !

• • •

أكانت بساطته تنبع من مسئوليته ، أم نبعت كل خصائصه المتفوقة

من عظمة نفسه . . ؟ ؟

أَلَا مَنْ شَاءَ أَنْ يَرَى مَا يَسُرُّ الْأَعْيُنَ ، وَيَجْعَلُ الْأَفْتَدَى فِي عَيْدٍ . .

أَلَا مَنْ شَاءَ أَنْ يَرَى الْعِظْمَةَ الْإِنْسَانِيَّةَ فِي أَوْجِ صَدَقِهَا وَنُهَاهَا . .

فليبصر ذلك الإنسان القارع الطول ، الأصلع الرأس . المنفرج

القدمين ، اللابس بردة بها إحدى وعشرون رقعة ، والحامل في يُسْرَاهِ

دواة ، وفي يمينه قِرْطَاساً وقلماً . . يقرع أبواب الدور ، ويطلب إلى نساء

المؤمنين اللواتي غاب أزواجهن في الثغور وفي ميادين الجهاد أن يجلسن

وراء الأبواب : ويعلن عليه رسائلهن إلى الأزواج ، فَإِنْ الْبَرِيدُ عَلَى وَشْكِ

أَنْ يَرْحَلَ وَيَسَافِر . . ! !

أو فليبصر ذلك الإنسان نفسه ، أمير المؤمنين « عمر » ، والظافر بالدنيا

العريضة – دنيا الروم وفارس ، يقرع الأبواب نفسها ، وينادي الزوجات



اللائي غاب أزواجهن :

- « اذكرن لي حاجاتكن ، ومن كانت لها في السوق حاجة ،
فلتذكرها لي ، أولترسل معي خادما إن كان لها خادم ، فإني أخاف أن
تُخدعن في البيع والشراء » ... !!

ثم يمضي إلى السوق ووراءه سرب طويل من الخدم ، وهناك يشتري
بنفسه ، ويضع الحاجات في السلال بيده ... !!

أصبح أن هذا الرجل عاش على ظهر الأرض يوماً ، وكان أميراً
للمؤمنين ، وكان يحيا بهذه البساطة ، ويعدل هذا العدل ، ويُنحِتُ ذلك
الإنجيات ... ؟؟ !!

أصبح أن رجلاً ، اسمه « عمر » ، كان للمسلمين خليفة وإماماً .
وفتح الله له فتحاً ميبناً ، هابته ملوك الأرض ، وتدرج عند قدميه طُغاتها
وجرت بين يديه كالأنهار ، الأموال والكنوز - يزوره وفد العراق يوماً ومعه
الأحنف بن قيس ، فيفاجأون به والحر شديد ، والصيف قاطظ ، منهمكاً
في تطيب بعر من إبل الصدقة يطليه بالقطران - ثم لا يكاد يرى ضيوفه ،
وفيهم الأحنف حتى يناديه :

- « ضع ثيابك يا أحنف ، وهلم فاعين أمير المؤمنين على هذا البعر
فإنه من إبل الصدقة ، وفيه حق للأمة ، والمسكين ، واليتيم » ...
فيقول له رجل من الوفد ، وقد أذهلته المفاجأة :

- « يغفر الله لك يا أمير المؤمنين ، إن عبداً من عبيد الصدقة يكفبك
هذا » ...

فيجيبه عمر : « وأيُّ عبدٍ أعبدُ مني ومن الأحنف ... ؟ » ثم يستأنف
تطيبه للبعير ... !!



أصبح هذا . . . ؟ ؟

من حسن حظ البشرية أنه صحيح ، وأن لها من « عمر » معيناً
لا يَنْصُبُ من الغبطة والعظمة والأمل . .

من حسن حظ البشرية ، أن « عمر » واحد منها ، لتعلم أنها تنطوي
على إمكانيات الكمال الذي تصبو إليه وتريده ، وأنه ليس عليها إلا أن
تجلو مواهبها ، وتصفل مزاياها ومزاياها ، فإذا هي تخرج الخبء ، وتعطي
الثمر ، وتنجب العظمة والكمال . . ! !

• • •

إن بساطة عمر تكشف الحماسة الكبرى التي يخوض فيها كل من يأخذه
الزهو والصلف بمنصب يناله ، أو نصر يبلغه ، أو ثروة يجمعها . فما الصلف
والتكلف إلا عبء ثقيل يحمله المخدوعون به ، ويصطلون بعذابه وهم
لا يشعرون . .

أما البساطة الصادقة التي عاشها « عمر » ، فتلك هي السعادة حقاً ،
السعادة التي يتمثل فيها رجوع النفس إلى جوهرها ، وتفوقها على كل خلاصة
وغرور . . .

سبحانه ، ربُّ عمر . . . ! ! !

لقد ألهمه رُشدُه ، ووقاه شرَّ نفسه . ومنحه من استقامة الشخصية
وجلالها ما جعله نسيج وحده ، لا في بلده وحده ، ولا في عصره وحده ،
بل ملء كل مكان ، وعبر الزمان ، جميع الزمان . . ! !

حيثما نلقاه ، نلقى بطولة روحه ، نلقى بساطته وإخلاصه وصدقته .
حتى ليتركنا في حيرة ، كيف توفر لهذا الرجل ، كل هذا القدر من الدعة .

والأمانة ، والبساطة ، وهو الذى زادت أعداد الجند فى جيوشه على مئات الألوف ، وأصبحت الأموال تتكدّس بين يديه فى أفناء المدينة أكواماً وتللاً . وأخذت الوفود من أرجاء الأرض القريبة والبعيدة ، تسعى إليه طالبة الأمن ، وأحاطت به قلوب الشعوب التى حررها من ظلم الروم ، وغطرسة الفرس . . . وأحاطت به فى هيام وحب وفتون يسلب الحليم كُبه . . . ! ! كل قوى الإغراء بالزهو ، والحض على الاستعلاء . ثم لا نجد أثارة - أدنى أثارة - من زهو أو استعلاء . بل على العكس نجد قمماً تزحم الأفق . . . قمة الزهد ، وقمة العدل ، وقمة الورع ، وقمة البساطة والتواضع . . . شوامخ يعلى الرجل بناءها بفضائل نفسه ، وبطولة روحه ، واستقامة نهجه . . ؟ ؟ انظروا . . .

ها هو ذا يقترب من مشارف الشام ، وقد خرج أهلها لاستقباله ، فيلقاهم رجل قد امتطى جملاً يجلس فوق وطاء من صوف خشن ، وقد دُلّ رجلاه من شعبي رحله ، فلا وجاف ، ولا ركاب ، يلبس قميصاً من قطن ، كثير الثقوب ، كثير الرقاع . . . ! ! ! ويقبل الناس على الرجل يسألونه : أين أمير المؤمنين . . ؟ ؟ - ألم تلق موكبه فى الطريق ؟ ؟

فيجيبهم الرجل باسم « أمير المؤمنين أمامكم » فيغدّون السير إلى أمام . . حتى يأتهم الخبر من ورائهم بعد حين : أن أمير المؤمنين قد وصل « أيلة » ونزل بها ، فيعودون مهرولين . .

ويدخلون على أمير المؤمنين حيث كان يجلس مع الناس وتكاد تصعقهم المفاجأة ، فما أمير المؤمنين إلا الرجل الذى لقيهم يمتطى جملاً والذى سأله عن أمير المؤمنين ، فقال إنه أمامكم . . ! !

ويؤتى له يبرذون مطهم عليه سرج جميل ، ورحل أنيق ، فيرفض ركوبه ويقول : نحوا عنى هذا الشيطان . . ! !

فإذا قيل له : إن هذه بلاد لا تصلح بها الإبل ، يركب البرذون ولكن بعد أن يجرده من كل حلية وزخرف . وبعد أن يلتقى عن ظهره بالسرج الأنيق ، والرحل المزركش ، ويضع مكانهما ، الكساء من الصوف الذى كان يتخذه وطاء له إذا ركب ، وسادة ينام عليها إذا نزل . . ! !

وفى رحلته الأولى إلى بلاد الشام يلقاه على أبواب مدينة القدس قواد جيشه وأمرأؤه ، ممتطين صهوات الخيل ، وقد تمنطقوا بحلل من الديباج . . فلا يكاد « عمر » يرى المشهد ، حتى ينزل من فوق دابته سريعاً ، ويده على الأرض تأخذ من طوبها وحصاها ، ويرى الأمراء والقواد ثم يقبل عليهم قائلاً :

« سرعان ما قُتتم ؟ أفى هذا الزى تستقبلون عمر . . ؟ سرعان ما ندت بكم البطنة والترف ، وأنتم الذين لم تشبعوا إلا من عامين » . . . ! ! هذا رجل لم تكن البساطة ، والتواضع ، هواية له ، بل كانت ديناً ، وفطرة ، وأمانة . .

إنه يلتقى ذات ليلة بسيدة تسير وحدها فى المدينة . حاملة قرية كبيرة فيقترب منها ويسألها عن أمرها ، فيعلم أنها ذات عيال ، وليس لها خادم ، وأنها تنتظر حين يرخى الليل أستاره ، فتخرج لتملأ قربتها ماء . فيأخذ منها القرية ويحملها عنها ، وهى لا تعرف من هو . ؟ حتى إذا بلغ دارها ، قال وهيناولها قرية الماء :

– « إذا أصبح صباح غد ؛ فاقصدى عمر ، يرتب لك خادماً ، قالت : إن عمر كثير شغله ، وأين أجده . . ؟

قال : اغْدِي عليه ، وستجدينه إن شاء الله تعالى . .
وتعمل المرأة بمشورة الرجل الطيب ، لكنها لا تكاد تذهب إلى عمر ،
وتقف بين يديه حتى تصيح مبهورة : أنت هو إذن . . ؟ !
ويضحك أمير المؤمنين . ثم يأمرها بخادم ونفقة . .

• • •

لا ريب أن أمير المؤمنين لو خير بين هذه البساطة الصادقة ، وكل ما في
الدنيا من زينة وزخرف ، لما آثر على نعمة التواضع والبساطة شيئاً . .
وإن الرجل الذي عاش حياته متفوقاً ، وكانت أيامه فوق الأرض
موكباً مستمراً من الانتصارات والسعادة - منذ كان قتي يصارع الفتيان
في سوق عكاظ ، فيظفر بهم وينتصر عليهم . .
إلى أن أسلم . فكان إسلامه فتحاً . . ثم هاجر ، فكانت هجرته نصراً . .
إلى أن صار أميراً للمؤمنين تهاوى تحت ضرباته أركان العالم القديم
كله . . ! !

هذا الرجل ، صاحب هذه الحياة الحافلة دوماً ، الظافرة أبداً . .
كان أروع انتصاراته وأبهاها وأبقاها ، هذا الورع الذكي الجليل الذي
أعطى دنيا الناس كافة ، ودنيا الحكام خاصة ، قدوة لا تبلى ، ولا هي
يوماً بنا صلة . . ! !

قدوة تتمثل في عاهل بركت الدنيا على عتبة داره مُثَقَلَةٌ بالمغانم والطيبات ،
فسرَّحها سراحاً جميلاً ، وساقها إلى الناس . ينثر فيهم طيباتها ويدراً عنهم
مُضِلَّاتُهَا . . حتى إذا نفّض يديه من علائق هذا المتاع ، استأنف سيره
ومسراه ، مُهْرَولاً في فترة الظهيرة وراء بعير من أموال الأمة يخشى عليه

الضياح . . أو مُنْحِنياً فوق قِدر . . طيبة لامرأة غريبة أدركها
كرب المخاض . . أو مستقبلاً فوق الرمال وتحت ظل النخيل ، وفداً من
وفود الدنيا التي تقصد المدينة تباعاً ، باحثة لأممها ودولها عن مكان في العالم
الجديد الذي ينسقه « عمر » وبينه . . أو صاعداً المنبر يخطب المسلمين
ويذكرهم بأيام الله في بردة تزدان بإحدى وعشرين رقعة أو تزيد . . ! ! !

• • •

وبعد :

أبقى شيء يقال . . ؟

أستغفر الله . . بل هل قلنا شيئاً من الكثير ، الكثير ، الذي يمكن

أن يقال . ؟ ؟

ألا حسبنا تلك اللحظات الياقة الممتلئة التي عشناها معه . .

ولنقنع قبل أن تنقطع منا الأنفاس ، بتلك الخطى المحبورة التي

تابعنا بها - قليلاً من الوقت - رجلاً يسابق الزمان . . ! !

وإذا أردنا أن نُعبّر عن انبهارنا البالغ أشدّه ، فلنوفر على أنفسنا عناء

مالاً يُطمع فيه ولا يُقدّر عليه ، ولتسعننا في هذا الوطن كلمة عبد الله بن مسعود :

- لله درُّ ابن الخطاب . . أيُّ أمرى كان . . ؟ ؟ ! !

• • •